السنة السابعة (رمضان سنة ١٣٥٩هـ — أكتوبر سنة ١٩٤٠م) العدد الثاني

صحيفة دار العلوم

ص ا ح ع ١٩٣٤

تصدرها "جماعة دار العلوم"
كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير	المدير
محمد على مصطفى	محمد نجيب حتاتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

نعتذر إلى حضرات القراء من صدور هذا العدد متأخرا عن موعده، بما
كان من وقت طويل ضاع فى سبيل الحصول على الورق نظرا لأزمته القائمة
ونفيدهم أننا قد أعددنا العدة لعدم حدوث ذلك فى الأعداد القادمة التى ستظهر
فى مواعيدها إن شاء الله . م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من شئون اللغة العربية

يسر صحيفة دار العلوم وقراءها أن تسجل فى صدر هذا العدد ما نلمح فى أنحاء البلاد من آثار النهضة المباركة فى شتى النواحى ، وما يتجلى فى البيئات الثقافية والتعليمية من نشاط محمود ، يملأ القلوب أملا ، ويبشر بما سنجنى من خير ، وما سنصل إليه من نجاح فى حل مشكلات تعليمية قطعت مراحل فى التجارب والتمحيص ، وطال عليها الأمد . وليس غريبا أن يطول ؛ فمشكلات التعليم تتطلب التجربة والبحث والأناة ؛ لما لها من صلة وثيقة بحياة الشعب وأبناء الجيل الحاضر والأجيال القادمة . وثقافة أبناء هذا الوطن لها عظيم الشأن فى إعزاز مصر ورفع شأنها وتخليد مجدها .

ومما يدعو إلى الاغتباط هذا النشاط الشامل الذى نجده فى وزارة المعارف وفى الهيئات التعليمية المختلفة ، وذلك الاتجاه الموفق إلى نواحى الإصلاح ، وتلك الرغبة الصادقة فى تركيز الثقافة على أقوى الأسس وطبعها بالطابع القومى الذى هو دعامة حياة الشعوب ، وعامل من أمتن العوامل فى توحيد غايتها ، وتقوية وحدتها ، وتثبيت نهضتها ، والتقريب بين ميولها وآمالها .

ومن أظهر نواحى النشاط التى استقبلتها الهيئات التعليمية فى البلاد مستبشرة — تكوين مجلس التعليم الأعلى ليكون منبعا للإصلاح الثابت الدعائم ، وعونا على وضع أقوم الخطط للتعليم ، وعلى تحديد سياسته ، وميدانا لتبادل الآراء وتمحيصها ، ووسيلة لإقرار أوضح نهج لما يكفل للتعليم رقيا ، ولأبناء هذا الوطن نجاحا وقسطا من النهوض موفورا . ويقيننا أن هذا المجلس سيكون عظيم

الأثر ، جليل الفائدة ، فإنه سيتيح الفرص لامتزاج مالأعضائه الأجلاء من رأى وصدق نظر وحكم سديد بما لرجال المعارف من خبرة طويلة ، وتجربة ترتكز على الأسس العلمية ، وتقترن بما يسترشدون به من النظم التعليمية والتهذيبية فى الممالك الأخرى . ولاريب فى أن كل ذلك سيوصل إلى تمحيص الآراء ، وسيكون عونا على إقرار سياسة للتعليم موافقة للبلاد وحياتها ، وعلى تحديد غاية تضىء السبيل فيما تنشد من وسائل لإصلاح التعليم فى خططه ومناهجه ومراحله . وسيجد المجلس أمامه من المسائل والمشكلات التى تتطلب البحث والدرس وإبداء الرأى قدرا ليس بالقليل ، سيكون له من جليل هممهم وثاقب آرائهم حظ عظيم .

ومن المسائل التى نحمدها لوزارة المعارف عنايتها باللغة العربية وبإنهاضها وبتشجيع الاهتمام بها بوسائل شتى :

فقد تجلى هذا الاهتمام فيما بذلت الوزارة فى المدارس الأجنبية من جهود كللت بالنجاح ، وصادفت من القائمين بإدارة هذه المدارس قبولا . على أن الوزارة لم تقتصر على بعث الاهتمام باللغة العربية فى هذه المدارس بل شملت بعنايتها أيضا الجانب القومى والوطنى والدينى فطلبت أن يكون لهذا الجانب حظ من الرعاية فى برامج التاريخ والتهذيب والدين فى هذه المدارس . وستؤتى هذه العناية ثمارها فى تقويم الطلاب المصريين الذين يتعلمون فى هذه المدارس وفى صقل ألسنتهم ، وتنمية عاطفة القومية ، وتمجيد الوطن وإعزازه ، والسعى إلى خيره وخير أبنائه ، وبذل الجهد فى خدمته ورفع لوائه .

***

هذه بعض نواحى النشاط فى وزارة المعارف وفى الميدان الثقافى والتعليمى نسجلها مغتبطين . وسنرقب نتيجة هذا النشاط ونتابع تعرف آثاره ونتخذ من صحيفة دار العلوم ميدانا للبحث فى شتى نواحيه ، راجين من الله أن يسدد خطانا ، ويوفقنا الى أقوم السبل وأوضحها ؟

نسب أبي تمام

للأستاذ عبد الحميد راضى

إلى طيء إحدى قبائل العرب اليمانين ينتسب أبو تمام الشاعر ؛ وبأوس بن الحرث بن قيس يبدأ صلته بهذه النبعة الوارفة ؛ وإنه لنسب طالما ازدهى به وهتف ، ورأى فيه مايرى أبناء البيوتات من العرب ؛ مما يملأ الجوانح عزة، ويثنى العطفين نخارا .

وقارىء شعره لايخامره شك فى أنه من أصل عربى ؛ وأن وشيجة القربى ووحدة الأرومة قد جمعت بينه وبين السروات من عليا هذه القبيلة ؛ فهو لاينى يذكرها ، ويردد مآثرها ، ويحدث مزهوا بما نال آباؤه من مكانة ، وما أصاب هو بهذا النسب من نخار .

وكيف يخامر القارىء شك ، وهو يقرأ له :

سما بى أوس فى السماح وحاتم	وزيد القنا والأثرمان ونافع
نجوم طواليع ، جبال فوارع	غيوث هراميل ، سيول دوافع
مضوا وكأن المكرمات لديهم	لكثرة ما أوصوا بهن شرائع
بها ليل لو عاينت فيض أكفهم	لأيقنت أن الرزق فى الأرض واسع
إذا طيء لم تطو منشور باسها	فأنف الذى يهدى لها السخط جادع

ويقرأ له :

لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت	وبُطنانها منه وظُهرانها تبر
أبى قدرنا فى الجود إلا نباهة	فليس لمال عندنا أبدا قدر
ليسجح بجود من أراد فإنه	عوان لهذا الناس وهو لنا بكر

جرى حاتم فى حلبة منه لو جرى   بها القطر شأوا قيل : أيهما القطر ؟
فمن شاء فليفخر بما شاء من ندى   فليس لحى غيرنا ذلك الفخر

ويقرأ له الكثير غير هذا مما يذكرنا الفرزدق ومفاخره ؛ ويرينا صفحة صادقة للعربى وحرصه على الإشادة بنسبه وقبيله ؛ ويترك فى النفس عن عروبته فيضا من الثقة وقبسا من اليقين .

وإن هذا اليقين ليزداد رسوخا ، وإن هذه الثقة لتزداد قوة ووفورا إذا علم القارىء :

ا — أن كلمة الطائى كانت تدل على أبى تمام دلالة اسمه بل كانت أكثر منه دلالة .

ب — وأن أبا الفرج الأصفهانى حين تحدث عنه قال :

« أبو تمام حبيب بن أوس الطائى من نفس طيء صليبة » وهو لا يريد من كلمة صليبة إلا معناها وهى أنه لم يكن فى طيء مولى ولا دخيلا ، وإنما كان خالص النسب عريقا .

حـ — وأن الوزير ابن الزيات حين رثاه قد دل على حظ نسبه من الصحة والذيوع حيث قال :

قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم   ناشدتكم لا تجعلوه الطائى

وفى هذا كله بل فى بعضه ما يدل على نسب عربى خالص العروبة ؛ ويباعد بين الباحث وبين الارتياب فيه .

***

ولهذا يبدو غريبا ما يراه بعض مؤرخى الأدب من أن أبا تمام لا يمت إلى طيء بصلة ؛ بل لا يمت إلى العرب جميعا بسبب .

فهو عندهم صابىء فى دينه ، جاحد لنسبه ، مبدل لاسم أبيه ؛ ولد من أصل يونانى مسيحى فلما شب أسلم وزعم أنه عريق فى عروبته وإسلامه .

ووالده عندهم ليس أوسا الطائي العربي، كما ذكر هو في شعره، وكما ذكر أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه؛ وإنما هو تدوس أو تيودوس العطار أو الخمار النصراني اليوناني.

وما نسبه عندهم إلا فرية افتراها هو أو افتراها له آخرون على جهل بالأنساب؛ فبدأ النسب (في رأيهم) غير محكم الصوغ؛ يحمل دليل انتحاله، وطابع بطلانه؛ وذلك أنه يلحقه بجلهمة «طيء» بعشرة آباء في حين يجب أن يلحقه بستة عشر أبا.

هذه آراؤهم، وتلك برهنتهم، نقلها ابن خلكان عن الآمدي، وذكرها المستشرقون في دائرة معارفهم، وذكرها غير هؤلاء من القدامى والمعاصرين:

فالآمدي يقول «والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام أن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم- قرية من قرى دمشق- يقال له تدوس العطار فجعلوه أوسا، وقد لفقت له نسبة إلى طيء، وليس فيما ذكر فيها من الآباء من اسمه مسعود. وهذا باطل من عمله، ولو كان نسبه صحيحا لما جاز أن يلحق طيئا بعشرة آباء».

وفي دائرة المعارف الإسلامية «كان أبوه نصرانيا يقال له «ثادوس» (ثيودوس؟) وقد استبدل الابن هذا الاسم فجعله أوسا بعد اعتناقه الإسلام ووصل نسبه بقبيلة طيء ومن ثم سمي أحيانا بالطائي».

***

وهذا اتهام كما ترى فيه قوة وفيه وضوح، والكلام متى صحب براهينه فقد اتخذ إلى العقل والقلب سبيله.

وكلام أبي تمام ومناصري قضيته لم يك كذلك ضعيفا ولا خفيا وإنما كان واضحا عظيم الأثر قويا.

والخلاف لهذا يتراءى بالغ الحدة لا هوادة فيه ولا قرب بين أطرافه،

ونسب أبي تمام يبدو لهذا غامضا ممعنا فى الغموض ، وليس غموضه لالتواء العبارة وخفاء الغرض ، ولكن لاستواء العبارة ووضوح القصد : فهذا واضح وذاك واضح ، وإن من الوضوح ماقد ينتهى بالمرء إلى خفاء ، وإن من الإبانة مايورث السامع والقارىء العى والإعياء .

والإنسان سيقف وقفة الحائر . لايستطيع أن يقدر أحد الرأيين بأكثر مما يقدر به الآخر ، مادام ملازما لهذه النظرات الخاطفة مكتفيا بالتقليد فى الحكم .

وسيبقى أبو تمام فى نظره يونانيا لأن الآمدى وغيره رأوا ذلك . أو عربيا لأن الأصفهانى وغيره رأوا ذلك ، أو يونانيا ينسبه البعض إلى العرب وعربيا ينسبه البعض إلى اليونان .

سيبقى الباحث كذلك مابقى على مذهبه فى البحث : وسيبقى أبو تمام كذلك مابقى التقليد والاطلاع القانع ، وسيبقى الخلاف قائما ، وستبقى البلبلة الفكرية ؛ لأن المؤرخين لم تتفق كلمتهم على رأى فيه .

مع أننا نؤمن بأن أحد الرأيين حق لاشك فيه فيجب إحقاقه ، وأن أحد الرأيين باطل لامرية فى بطلانه فيجب إبطاله ، وأننا بالبحث والنظرة الفاحصة خلقاء أن ننتهى إلى موقف خير من موقف الحيرة ومواقف التقليد .

على أن الأمر قد يكون من اليسر بحيث لايحتاج إلى الفكرة العميقة والبحث المتصل ؛ فعروبة أبى تمام - فيما أرى - لها وفر من الأدلة لايشفع فى بقاء هذا الخلاف ، ولايدع مجالا للشك أو الغموض .

وإنى حيال ذكر هذه الأدلة أجد من الخير تقسيمها إلى طوائف : فهناك أدلة فيها قوة وفيها عون على الإقناع ، وهنالك أدلة فاصلة لاتدع مجالا لشك أو ريبة ، وهناك أدلة أسوقها برهانا على تحامل خصوم أبى تمام وعلى أن خلافهم له لم يكن لوجه الحق والتاريخ ، وإنما كان للتعصب والهوى .

***

ا

والأدلة التي ألمح فيها عروبة أبي تمام وطائيته ولا أزعم كفايتها للبرهنة هي :

١ — شبه الإجماع على طائيته من مؤرخي جيله والجيل الذي يليه ، وحسبك أن ثقات القرنين الثالث والرابع كابن قتيبة الدينوري وأبي العباس المبرد ومحمد بن جرير الطبري وأبي الحسن علي المسعودي وأبي الفرج الأصفهاني وغيرهم — تدل عباراتهم على الاقتناع بطائيته وعدم الشك في نسبه .

٢ — نزعته القبلية التي تتجلى في إقباله على مدح الطائيين ورثائهم ؛ وإن من العجب حقا أن تكون مراثيه في بني حميد الطائيين أوفر من مدائحه للخليفة المعتصم (وهو فيما يقال شاعره) ، وأن تكون مدائحه في أبي سعيد الثغري الطائي وحده ضعف ما قال في الخلفاء وأبناء الخلفاء جميعا ، وأن نرى له مدائح في نكرات من الطائيين نكاد لا نقع على أسمائهم إلا في ديوانه ، وأن نرى له هذا التعصب المسرف لليمانين على العدنانيين في قصيدته التي مدح بها أبا سعيد والتي يقول فيها :

تزحزحي عن مكان العز يا مضر هذا ابن يوسف ما يبقي وما يذر
هو الهزبر الذي في الغاب مسكنه وآل عدنان في أرضيهم بقر
له حسام من الرأي الأصيل إذا ماسله جاءت الأيام تعتذر
وإنما يمن نور تضيء لكم كما يضيء لأهل الظلمة القمر
لولا سيوف بني قحطان ما قرئت بين الصفا وحطيمي زمزم السور
ولا أحل حلال الله في بلد من الأنام ولا حجوا ولا اعتمروا

٣ — ما فعل حين وصل إليه نعي محمد بن حميد الطوسي الطائي ؛ فالتاريخ يحدثنا أنه حين بلغه النعي غمس طرف ردائه في مداد ثم ضرب كتفيه وصدره وأنشد القصيدة الخالدة :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ولم نسمع أنه فعل مثل هذا لموت عظيم أو خليفة ، وأكبر ظنى أنه لم يتصل بابن حميد هذا ولم يره بدليل أننا لانجد فى ديوانه الذى بأيدينا مدائح له، ذلك إلى أن تاريخ أبى تمام لايبعث فى الباحث الاطمئنان إلى وقوع هذا الاتصال .

وأما الأدلة التى نراها قاطعة بصحة النسب هادمة قضية الخصوم كاشفة عن مواطن الضعف فى أدلتهم فهى :

١ ــ اسمه واسم أخيه : نعم قد اتهموه بتغيير اسم أبيه ولكنهم لم يتهموه بتغيير اسمه هو . ونحن جميعا نعلم أن اسمه حبيب وهذا اسم عربى لاشك فى عروبته ولا صلة له بأبناء يونان ، فهو دليل مادى على عروبته وهو دليل مادى كذلك على أن أعداء الشاعر لم يحسنوا حوك الاتهام وصوغ الدعوى ؛ فأبو تمام إذا كان يسمى حبيبا حقا كما يقول الناس جميعا وكما يقولون هم ــ فدعوى تغيير اسم الأب من اليونانية إلى العربية دعوى بادية البطلان ظاهرة التلفيق .

على أننا سنسلم باتهام جديد لم يذهبوا إليه ، ونقول : إن أبا تمام حين أسلم وترك أهله بدل اسمه واسم أبيه إمعانا فى التضليل ، وفرارا من المتعقبين . بيد أن تسليمنا لايفيد هؤلاء المدعين ؛ فلنا من اسم أخيه أقوى شاهد على وهن حجتهم وزيف قضيتهم ، فأخوه اسمه سهم ، وسهم اسم عربى لامرية فى ذلك . وما كان لنا أن ندعى تغييره ، وما كان لأبى تمام طاقة على هذا التغيير ؛ فهو قد ترك أهله صغيرا ، وعاش حلف غربة ونضو سفر ، وليس فى استطاعة هذا الولد العاق النائى أن يغير أسماء أفراد أسرته وهم فى موطنهم وهو عنهم بعيد .

لم يبق إلا أن ننتهى إلى نتيجة لاسبيل إلى غيرها ، وهى أن الأسرة عربية ، والنسب الذى يدعيه الشاعر لايستساغ سواه .

٢ ـ نسبه : وأقل مايقال فى دعوى تلفيق النسب أنها دعوى جريئة غريبة :
ذلك أننا لا نعلم كتابا ذكر نسبا لأبى تمام يلحقه بطيء بعشرة آباء كما يقولون ؛ وإننا لنجد سلسلة نسبه فى هبة الأيام وفى ابن خلكان قد ألحقته بطيء بثلاثة عشر أبا ، والفرق بين هذا النسب وما يريدون ثلاثة آباء ، وهذا القدر كثيرا مايكون فرقا بين نسبي رجلين يعيشان فى عهد واحد وينسبان إلى جد واحد.

على أن الخطيب البغدادى قد أراحنا من هذا الخلاف بذكره نسب أبى تمام كاملا غير منقوص ، ولو قرأته لوجدته يلحقه بطيء بسبعة عشر أبا لا بعشرة كما يدعون ولا بستة عشر كما يريدون .

وبالموازنة بين ماذكر البديعى وصاحبه وبين ماذكر الخطيب البغدادى نجد أن ثلاثة آباء قد سقطوا بين يحي ومروان ، وأبا قد سقط بين مروان ومر.

وسقوط أب أو عدة آباء فى كتاب مع عدم سقوطهم فى آخر لا يصح أن يعتبر وسيلة لطعن أو دليلا لتجريح .

ولعلك تدهش حين تعلم أن بعض كتب التاريخ الموثوق بها قد أسقطت من نسب الخليفة العباسى الثانى عشر أحمد المستعين بالله ـ أباه ؛ حتى يظن القارىء أنه ابن المعتصم والواقع أنه ابن محمد بن المعتصم ؛ ولعلك تدهش حين تعلم أن هذا الخطأ أوقع الكثيرين فى خطأ آخر ، ذلك أنهم فهموا أن الخليفة العباسى المستعين بالله هو أحمد بن المعتصم الذى مدحه أبو تمام بسينيته المشهورة التى منها :

لا تنكروا ضربى له من دونه　　مثلا شردوا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره　　مثلا من المشكاة والنبراس

مع أن أحمد بن المعتصم الذى مدحه أبو تمام لم يتول الخلافة بل لم يكن ولى عهد .

ومن هؤلاء الذين وقعوا فى الخطأ ناشرو « أخبار أبى تمام للصولى » وهم

أفاضل عنوا بالتحرى والدقة .

٣ - وصية كتبها إلى والى دمشق : فقد كتب إلى أبى الحسن بن اسحق والى دمشق يوصيه بأخيه سهم خيرا وكان سهم لازال يعيش فى جاسم (من أعمال دمشق) مسقط رأس أبى تمام وموطن أسرته .

والذى نأخذه من هذه الوصية أن أبا تمام ما كان ليجرؤ على الكتابة إلى وال يشرف على بلده ويستطيع الوقوف على نسبه إذا كان منتحلا لنفسه اسما غير اسمه وأسرة غير أسرته .

وقد شاءت الأقدار أن يقف على هذه الوصاة سعيد بن عون الشاعر المعروف بالشعبانى ، وكان من المقربين من الوالى الكارهين لأبى تمام فبغض الوالى فى مساعدة سهم ولم يجد سبيلا إلى هذا غير قول أبى تمام فى رسالته « وسيلتى إليك أيها الأمير منازلتى إياك فى الفندق « بسر من رأى »مع فتور الماء وكثرة الذباب » وغير قصيدته التى ذيل بها رسالته ومنها :

أولى البرية حقا أن تواسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

حتى قال الوالى « ومتى نزلت منزلا خشنا أو كنت فى ضنك من العيش أو حزن ؟ فوصفنى به فى الشعر » وحرم سهم بن أوس صلته .

ولو كان مغموز النسب ماتأخر الشعبانى الشاعر عن نيله من هذا الطريق، ولكن التاريخ لاينقل عن الشعبانى طعنا فى نسب أبى تمام .

ج

وأما أدلة التحامل فتتجلى فيما يأتى:

١ - عبارة الآمدى « والذى عند أكثر الناس فى نسب أبى تمام . . . .

فالتعبير بأكثر الناس مع عدم الإشارة إلى فرد منهم يدل على أنه لايريد بهذا التعبير إلا التأثير على السامع وإلا فأين هذه الكثرة ومتهموه قلة لاتكاد تذكر؟

٢ ـ عبارة دائرة المعارف « ومن ثم سمى أحيانا بالطائى » .

وإن الإنسان ليحار إذا أراد أن يلتمس لأبى تمام اسما آخر غير حبيب وفى كل من كلمتى الطائى وحبيب ماينتهى بالمرء إلى العروبة وإنكار مايزعمون.

٣ ـ تحديد آبائه بعشرة وقديما قال الباحثون إن التحديد بالعقود مظنة عدم الدقة .

وقد كان خليقا بالمتأخرين فى الزمن أن يطلعوا على مادون من قبلهم وينصفوا هذا الشاعر.

٭٭٭

فنسب أبى تمام لهذا صحيح ودلائل صحته قوية موفورة لاتحتاج إلى بحث طويل أو عمق فى التفكير ، ولكن هذا الخلاف لابد أن يترك وراءه أثرا يبعث الدهش ويحفز إلى البحث عن أسبابه .

ورأيى أن هذا وليد الملاحاة وسجال الهجاء ، وأنه لون مما نراه فى عصرنا من الإسراف فى الاتهام والتجريد من كل فضل .

وقد صور لنا هذا السجال دعبل عدو أبى تمام فى شعر وجهه إليه ، قال :

يا عجبا من شاعر مفلق آباؤه فى طيء تنمى

أنبئته يشتم من جهله أمى وما أصبح من همى

فقلت لكن حبذا أمه طاهرة زاكية علمى

أكذب والله على أمه ككذبه أيضا على أمى

فهذه الأبيات التى ينسبونها إلى دعبل تعترف بطائية أبى تمام ، وتنم على أن الطعن فى النسب كان ظاهرة من ظواهر الهجاء .

ولو قرأنا أبا تمام نفسه فى هجائه لوجدناه يجرد الناس من عروبتهم ونسبهم ووجدناه يقذف المحصنات ويرمى الأبناء بأسوأ السيئات ، والناس يبادلونه أو لا يبادلونه هذا الباب .

أنظر إلى قوله فى عتبة بن أبى عاصم :

دعواك فى كلب أعم فضيحة   وأخس أم دعواك فى الشعراء

وقوله فيه :

والله لو ألصقت نفسك بالفرا   فى كلب لاستيقنت أنك ملصق

وقوله فى عباس بن لهيعة الحضرمى حين غاضبه وبرم بمطله :

لجاجة بى فيكم ليس يشبهها   إلا لجاجتكم فى أنكم عرب

وقوله فيه :

ومالى أهجر حضرموت كأنهم   أضاعوا ذمامى أو كأنك منهم

فالطعن فى نسب أبى تمام لهذا أراه لونا من الهجاء وأعده لغوا غير خليق بالاحتفال له والالتفات إليه .

وأرانى بعد هذا مطمئنا كل الاطمئنان إلى ما انتهى إليه البحث من عروبة هذا الشاعر والسمو بنسبه عن الأهواء والتهم .

عبد الحميد راضى

المدرس بالقبة الثانوية

من مرآة النقد الأدبي

للأستاذ عبد العظيم قناوى

«هذا فصل من كتاب أعددته فى الموازنات الشعرية عرضت فيه لتاريخ الشعر ونشأته ، وتاريخ الموازنات وطريقة العرب فيها وأثر العاطفة فيما يصدرونه من أحكام ، وقيمة تلك الأحكام والسبب فى زيف بعضها، إلى غير ذلك من النواحى الأدبية التى تتصل بذلك الموضوع ، ثم أتبعت ذلك بأبيات متنوعة فى أغراض الشعر المختلفة تضم البيت والبيتين والثلاثة والأربعة ، وعقدت بينها موازنات قائمة على أسس عدة تقرب الناقد الأدبى من الصحة ، وذيلت بعض الأبيات بتراجم أصحابها حتى يتبين الموازن عصرهما ، فيحكم لأحدهما بالسبق على الآخر ، وحاولت ما استطعت أن أحصر المعانى الشائعة فى مختلف الأغراض التى تناولها عامة الشعراء وخاصتهم .

وإلى القراء الكرام الفصل الأول من هذا الكتاب الذى منعنى عن طبعه العوامل الحاضرة . »

الشعر عند العرب وتاريخه : —

الشعر ديوان العرب ؛ يضم فى ثناياه شتى شئونهم ، وينتظم بين دفتيه خطير أمورهم ، وتفصل مطولات قصائده جليل أحداثهم ، فهو سجل حياتهم ، وعِبَر عبرهم ، وسيف حكمهم ، ورمز بيئتهم ، وصورة طبيعتهم .

والأمة العربية أمة شاعرة بفطرتها ؛ لاتساع أفق الخيال فى جزيرتها لسحر مناظرها ، وروعة مظاهرها ، فالسماء ونجومها ، والصحراء وآفاقها ، والأُسد وأشبالها ، والظباء ورئالها ، والإبل وصفاتها ، والخيل وشياتها ؛ كل أولئك معين للشعر لاينضب ، ومنبع للعاطفة لايغيض ، ووحى للشعور لاينقطع . هذا إلى دقة فى المشاعر ، ورقة فى العواطف ، وسجاحة فى العقول ، ورجاحة فى الأفكار ، تفيض تلك جميعها فتجرى بيانا ، يتخذ من النفوس ميدانا ؛ يتساجلون فيه بكريم المحتد ، وعريق العنصر ، ويتغنون بالصنائع المجيدة ،

والآلاء الحميدة ، ويتباهون بالأيام التالدة ، والوقائع الخالدة ، ويحنون إلى أوطانهم حنين الهيم إلى أعطانها ، ويتشاجون على ديارهم شجو الأطيار على أوكارها ؛ لايفضلون على أطلالهم قصور الأكاسرة ، ولا يرضون عن ديارهم بدساكر القياصرة ، ويتأملون فى الكون ، فإذا الشمس أعظم مافى ملكوت الله قدرا ، وإذا الكواكب أجل الأجرام السماوية خطرا ، فإذا هى لقدرها وخطرها وجلالها وجمالها مادة مدائحهم فينشد شاعرهم النابغة الذبيانى فى بيان سمو ممدحه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب؟
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويعجبون لليل وظلمته ، وللبحر ورهبته ، فيتخذون منهما عناصر للعظمة والرهبة ، والصبر والجلد كما ترى ذلك فى قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىَّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ولا تندّ عن تأملاتهم ظاهرة من ظواهر الكون ، ولا تعلو على تصوراتهم دقيقة من دقائق الوجود، بل ينظرون فيها جميعها نظر البصير، ويصفونها وصف القدير .

ارجع الفكر كرتين تجد العجب العاجب ، والحسن البالغ ، والجمال البارع فى وصف امرىء القيس منظرا من مناظر الطبيعة الخلابة لترى أن العرب بفطرتهم الصافية وصفوها أسنى وصف قبل أن يسمو إلى وصفها غيرهم .

رأى امرؤ القيس برقا يلمع وميضه فشبهه تشبيها يدل على بيئته ، فقال إن وميضه يشبه حركة اليدين فى سحاب متكاثف ، كأنه كلل بثياب أوغشى بإهاب ، أو هو كمصابيح راهب لايخشى سرفا فهو يهين زيته ، ويحتقر سليطه ليكون

ضوءه قويا ساطعا ، ثم شبه جبل ثبير وقد غطاه الماء وأحاط به الغثاء ، بشيخ زمل بكساء أو التحف بغطاء إلا رأسه فإن الماء لم يدركه فهو أسود ، وكأن الطيور فى تلك البكرة الباكرة فرحة مرحة بتلك الطبيعة الساحرة قد اصطبحت بالسلاف ، فارتفع تغريدها وعلت شقشقتها كما يفعل السكرى عندما تهزهم نشوة الراح ، وهاهى ذه الأبيات من معلقته :

أصاح ترى برقا أريك وميضه   كلمح اليدين فى حبى مكلل
يضىء سناه أو مصابيح راهب   أهان السليط بالذبال المفتل
كأن ثبيرا فى عرانين وبله   كبير أناس فى بجاد مزمل
كأن مكاكى الجواء غدية   صبحن سلافا من رحيق مفلفل

واستمع إلى هذا الاعتذار يلين الصخر ويبعث على العفو بل العطف يستمد خياله من الطبيعة ، فيصف هلعه وجزعه ويذكر بأسه ويأسه ، فيقول النابغة إنه بات من غضب النعمان عليه وكأن حية رقطاء نازعته فراشه ثم وصفها بأن سمها ناقع ، وسليمها هاجع ، وفى يديه لرقيها قياقع ، فإذا كنت لا العدو اللدود تنكل به حتى لا يعود إلى وشايته ، ولا يمينى الصادقة تبرئنى لديك فإنك لابد مدركى وإن خلت أن بينى وبينك مهامه فيحاء أو جبالا شماء ، وتلك هى الأبيات :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها   لحلى النساء فى يديه قياقع
لئن تك لاذا الضغن عنى منكلا   ولا حلفى عند البراءة نافع
فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وغير هذا وذاك من مشاهد الطبيعة ماقرت به عيونهم فتأملوا فيها ، وتفتحت لها عقولهم فوصفوها ، وأحاطوا بكنهها حقيقة وتخيلا ، وصورة وتصورا .

وما كان لهم أن يعبروا الشعر إلى غيره وتلك خلاهم ، ولا أن يغفلوا

قرضه ، وذلك أفقهم ، فلقد كان كل إنسان فيهم شاعرا من سنى حياته الأولى ؛ لافرق بين امرأة ورجل ، ولا بين طفل وكهل ولكنهم - سنة الوجود - تفاوتوا فى الإحسان ، وتباعدوا فى الإجادة ولم تكن قد عرفت قيود الوزن والقافية التى حدت من شاعرية الكثير منهم ؛ شاعريته بالمعنى المعروف ، فالشعر ماعبر عن الشعور ، ووصف مايختلج فى القلوب ، وصور ماتفيض به النفوس « روى أن زنبورا لسع ابنا لحسان بن ثابت الأنصارى فجاء أباه معولا مستعبرا وهو يقول « كأنه ملتف فى بردى حِبَرة » فتهلل أبوه وقال « شعر ابنى ورب الكعبة » وأى خيال يمكن أن يوصف به ذلك الذى لايعرف اسمه أسمى من ذلك الذى تخيله ؟ أليس لجناحى الزنبور لمعان لابد أن برود اليمن التى تخيرها كانت كذلك ؟

والشعر للعربى غذاء عاطفته ، وصفاء روحه ، وحياة وجدانه ، ويقظة شعوره . لذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك العرب إياه مستحيلا ؛ لأنه علقه على مستحيل بقوله عليه الصلاة والسلام « لاتترك العرب الشعر حتى تترك الإبل الحنين » ومن أعلم بطبائع العرب وأقدر على الحكم على حقيقة نفوسهم ممن نشأ بينهم ، وبعث فيهم هاديا ومبشرا ؟

تاريخ الشعراء :

باد مبدأ قول الشعر مع العرب البائدة ، إذ لم يكن بينهم جمهرة قارئة كاتبة متحضرة تعنى بتخليد أسنى آثار أمتها ، ويهمها تقييد أسمى مظاهر قوميتها لبداوتهم وإعراقهم فيها ، ولسكونهم إلى الحياة الفطرية ومحافظتهم عليها ، لاتكلف فيها ، ولاسمو إلى أعلى منها ، فلا نظام لهم ، ولاحكومة تجمع شملهم ، ولاقوانين تحدد شئونهم ، وتسيطر على حريتهم ، ولا حاكم يقيم كلمة العدل بينهم ، ويكاد رأيهم فى الحياة يتمثل فى بيت المرحوم حافظ بك ابراهيم .

ولذيذ الحياة ما كان فوضى   ليس فيه مسيطر أو أمير

فعيشتهم صورة واحدة لاتتغير مظاهرها ، ولاتتشكل مناظرها ، نوم ويقظة ، وصحو وسكر ، وكروفر . ولا يغض من هذا الحكم اتصالهم حينا بغيرهم من الأمم المجاورة لهم كالروم والفرس فإن الذين اتصلوا بهاتين الأمتين قلة ضئيلة لايحكم بها على حضارة شعب أو أدب أمة ، ومن هم ؟ إنهم جماعة من الأشراف اختيروا ليكونوا أمراء وحكاما ، وطائفة من الشعراء علقوا بملوك هذه الأمم آمالا . من أمثال الغساسنة والمناذرة من الأمراء ، وعدى بن زيد وامرىء القيس والنابغة والأعشى من الشعراء ، على أن هذا الاتصال جاء فى الطور الذى بدأت فيه الرواية والكتابة تأخذان مكانتهما فى البيئة العربية .

وليس مستساغا أن يكون الشعر نشأ كاملا قويا كما وصل إلينا ؛ لأن سنة الوجود تخالفه ، ولأن أحدا لم يزعمه . وإذا فقد مرت عليه أحقاب ودهور حتى بلغ ذلك المدى البعيد فى السلامة والجودة وحسن الأداء .

وتقريبا لنشأة الشعر نروى مايزعمه الرواة — لا على أننا مقتنعون بصحتها بل على أنها شبه دليل على أقدمية الشعر — قيل إن أول من نظم الشعر مضر ابن نزار بن معد بن عدنان « الجد السابع عشر للرسول الكريم » سقط عن بعيره فكسرت يده ، فصار يصيح : وايداه ! وايداه ! وكان جهير الصوت حسن النبرة ، فأصغت إلى شكاته الإبل ، وهاجها حنينه ، وشجاها أنينه فجدت فى المسير ، فوضع العرب على نسقه « هايدا هايدا » يحدون بها العيس .

ويروون كذلك أن أول بحور الشعر بحر الرجز وأنه سمى بذلك لأنه تتوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون يشبه الرجز فى رجل الناقة ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن ويقال لها حينئذ رجزاء ، والمتأمل فى مشية الخيزلى يجد أن وقع خطاها يتفق وتقسيم مشطور الرجز ومثاله لبعض الأعراب :

دع المطايا تنسم الجنوبا إن لهـا لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد أن قد فارقت حبيبا
ما حملت إلا فتى كئيبا يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا إذاً لآثرنا بهن النيبا
إن الغريب يسعد الغريبا

ومن تأمل فى مشية الهيذلى ووزن خطاها بنهوكه وجدهما متشابهين ومثاله لأحد الشعراء :

أعطيته ما سألا حكمته لو عدلا
قلبي به فى شغل لامل ذاك الشغلا
قيده الحب كما قيد راع جملا

وأول ما وصل إلينا من القصائد الطويلة قصائد عدى بن ربيعة المعروف بالمهلهل ، قيل إنه سمى بهذا الاسم لأنه هلهل الشعر أى أرقه أو لأنه القائل :

لما توقل فى الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا أو سنبلا

وأول مطولة له قالها فى رثاء أخيه كليب ومنها :

كنا نغار على العواتك أن ترى بالأمس خارجة عن الأوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسرا مستيقنات بعده بهوان

وقصائد الحرث بن عباد البكرى الذى يقول من قصيدة له طويلة ينذر مهلهلا بعد قتله ابنه بجيرا قائلا « بؤ بشسع نعل كليب » .

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيالى
قربا مربط النعامة منى إن قتل الكريم بالشسع غالى
قربا مربط النعامة منى لا نبيع الرجال بيع النعال
لم أكن من جناتها علم اللـه وإنى لحرها اليوم صالى

أما المقطوعات فقائلوها لا يبعدون فى الحقب عن مهلهل والحرث كثيرا

ومنهم دويد بن زيد بن نهد القضاعى الذى يقول :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته

أو كان قرنى واحدا كفيته

ورب عبل خشن لويته يارب نهب صالح حويته

وكقول أعصر بن سعد بن قيس عيلان :

قالت عميرة مالرأسك بعدما نفد الشباب أتى بلون منكر

أعمير إن أباك شيب رأسه مر الليالى واختلاف الأعصر

وكقول الأفوه الأودى :

والبيت لايبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولاسراة إذا جهالهم سادوا

تهدى الأمور بأهل الرأى ماصلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

إذا تولى سراة الناس أمرهم نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

ثم أهلّ بعد أولئك وهؤلاء أمير الشعراء فأتى بمعان توج بها رأس العربية ووهب تشبيهات ستبقى خالدة لايعفيها قدم ، ولاتذهب بروائها حقب ، فمن ينكر أن هذا التشبيه رائع فى كل عنصر وبيئة ؟

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ولقد جرى الناس قديما وحديثا على استيحاش العاشق الليل واستئناسه بالنهار إلا هو فقد سوى بينهما وجعلهما لدى الوله متماثلين إذ يقول[1] :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح بيوم وما الإصباح منك بأروح

(١) ينسب هذان البيتان فى زهر الآداب للطرماح بن حكيم الطائى .

ثم يعقب على هذا باستدراك فيه طرافة ، وفيه حسن تعليل ، وفيه جمال ورونق فيقول :

بلى . إن للعينين فى الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

وحقا إن فى الصبح ملهاة للعينين تتنقلان حيث تشاءان ولطرفيهما مسلاة لتسريحهما كما يريدان ولكن القلب دائب الوجد متأجج ، ذائب من الصد متوهج .

ولا جدال فى أن امرأ القيس بلغ فى شعره الغاية، وأوفى على النهاية .

عبد العظيم على قناوى

التحقيقات اللغوية

للأستاذ محمد أحمد برانق

تطلع علينا الصحف فى كثير من الأحيان مشتملة على نبذ كثيرة ، قصيرة أو طويلة ، يذكر فيها أصحابها ألفاظا لغوية ، وينبهون الأدباء والكاتبين إلى الصواب منها والخطأ ، وإلى مايجب أن نتجنبه فى كتاباتنا ، وأن ننزه عنه أسلات أقلامنا ؛ فلا يلبث أن يطلع علينا فى اليوم التالى من تأخذه النعرة ، وتهزه الغيرة على سلامة اللغة بتخطئة ماذكره من سبقه ، وتصويب غيره ، ولا تزال هذه الكلمات أو تلك بين أخذ ورد ، ودفع وجذب ، ومد وجزر ، وكل واحد يقيم على قرنه الحجة مؤيدة بما تقدم من أقوال العلماء المتقدمين ، والأئمة السابقين ، وقد تستحر نار الجدل فيما بينهم ، حتى يتعداهم إلى مناقشة الأئمة ، وتخطئة هذا ، وتصويب ذاك .

وتلك النزعة حسنة فى ذاتها ، وقيمة من حيث مبدؤها ، أما المغالاة فيها ، والخروج بها عن الجادة ، والاندفاع فى تيارها حتى يطغى سيلها ، ويتناول العلماء الأعلام ، الذين فضلهم على اللغة كالغرة فى جبينها ، بالتجريح ، بحق وبغير حق ، أما هذا ، فهو مالا ترضاه اللغة نفسها ؛ ضنا بكرامة من لهم يد طولى ، فى المحافظة عليها ، والاهتمام بشئونها ، وإفناء زهرة العمر فى سبيل بقائها سليمة مرعية ، بعيدة عن لوثة الأعاجم .

وأريد أن أتحدث إلى هؤلاء ، وأولئك أن الكتاب الذين يريدون فيكتبون ويطيلون ، فلا يراجعون ولا يخطئون ، أكبر ظنى أنهم لم يخلقوا بعد ؛ لأن العربية الفصيحة وإن كانت اليوم لغة التحرير والكتابة ، فى الكثير الأكثر ، فإنها ليست لغة التخاطب ، وليست هى اللغة السائدة فى جميع الأوساط ،

والأندبة الراقية بلااستثناء ؛ ولذلك كان سيل العامية ، وطغيان الأساليب الأعجمية ، أمرا لايستهان به : لأن الألفاظ العامية ، والأساليب الأعجمية تنسل إلى الفصيحة من غير أن يشعر الكاتب ؛ لذلك قل أن يكتب كاتب موضوعا طويلا ، من غير أن يزل قلمه ، ولاسيما إذا ترك هذا القلم على سجيته فأرسله إرسالا ، فهو يخرج لنا فكرة ناضجة ، فى أسلوب حى ، وقول صاف قريب إلى الفهم ، سريع إلى الذهن ، ولكنه لايعدم دعيا يطلع عليه غداة نشره فيقول له : هذه اللفظة خاطئة ، والصواب كذا ، وهذا التركيب أعجمى ، والعربى الذى يوضع مكانه كذا ، ولايزال فى طبل وزمر ، حتى يخرج الكاتب وكأنه لم يفعل شيئا ، وليته ضم إلى ذلك مناقشة فى الفكرة التى بحثها ، أو المعانى التى أوردها ، أو أنه قال له : أحسنت فى كذا ، بل هو يخرجه للناس سوءا كله وشرا كله ، فالله حسبه !!

والحق أنى لاأريد أن نجعل ديننا التشنيع ، ونغفل الخير ، وننفخ فى بوق الشر ، ونخلق من الحبة قبة ، ولا أريد أن نتحكك فى الألفاظ ، ونقول: هذا صحيح ، وهذا ورد فى القاموس ، وذلك لم يرد ، ولاسيما إذا كان القائلون من قصيرى النظر ، الذين ضاقت دائرة اطلاعهم ، ووقفوا أمام بضعة كتب جنى الزمن على اللغة بوضعها تحت أيديهم ؛ لأن هذا فى الواقع حذلقة غريبة فارغة ، ومظهر أجوف ، فإذا نصبنا أنفسنا لأخذ كل كاتب بها من غير تحقيق ولا تمحيص ، فإننا لانخرج من وراء نقاشنا بطائل ، ولا نفيد اللغة ؛ لأن صيبة الكتاب هؤلاء يريدون أن يضعوا سادتهم فى مركز دائرة ، محيطها القاموس والمصباح والمختار ، فإذا خرجوا عنها أو أتوا بلفظة ليست فيها ، صاحوا وجاروا ، وشهروا عليهم أقلامهم مشنعين ، سواء أكانوا محقين أم غير محقين .

ولا نقصد من ذلك الإباحية فى اللغة ، فنحن من أحرص الناس عليها ، وأشدهم احتفاظا بكرامتها ، وأقواهم فى الانتصار لها ؛ ونحن نحمى حماها ،

وندود عن حريمها ، مهما كلفنا ذلك . وليس عيبا أن يخطىء العالم ، وإنما العيب أن يخطىء ويدعى العصمة ، فإن آية العلم أن تخطىء ، وتعترف بخطئك ، وآفة العلم اللجاج ، وقديما تورط العلماء فى كثير من المسائل ، ولما بدا لهم وجه الصواب فيها ، عدلوا عن رأيهم ، وما مسألة عمر بن الخطاب رضى عنه والأعرابية التى وجهت نظره إلى ماورد فى كتابه تعالى متعلقا بالمهور ، بغائبة عن كثير .

من ذلك تعلم المصيبة التى لحقت اللغة فى هذه الأيام من الذين يزعمون أن فى عملهم انتصارا لها . وعناية بشأنها ؛ فهم يركبون التعاسيف ، إذ يلجئون إلى القاموس ، وهو أبعد مايصلون إليه ، يفلونه جاهدين ، ويتلمسون كلمة معينة ، فإذا لم يجدوها ، تلظوا غضبا ،وثارت أعصابهم ، حتى إنك لتظن حين تراهم ، أنهم يبخعون أنفسهم غما ، ويشيطونها كمداوهما ، قولوا لهم : هونوا عليكم ، ورفقا بأنفسكم ، فإن اللغة ألين من ذلك جانبا ، وأعز مقاما ، وأوسع رحابا ، وأمرع جنابا ، فسيحة الباحات ، كثيرة المؤلفات ؛ وقد كان مايملكه منها الصاحب بن عباد يحمله ستون جملا ؛ رووا أن بعض الملوك أرسل إليه يستقدمه ، فقال له فى الجواب : أحتاج إلى ستين جملا أنقل عليها كتب اللغة. فأين هى من كتب الأدب والتاريخ وغيرها ؟ .

وإن ضيق العطن ، قصير النظر ، من يقف أمام لفظة ، ويقول : إنها من اللغة ، أوليست منها ، متى لم يقف عليها فى معجم أو معجمين صغيرين يملكهما، فأين هو مما كان يحمله ستون جملا ؟ ولعل هذه اللفظة التى لم يعثر عليها وردت فى أحد هذه الكتب الكثيرة التى قد لايعرف منها حتى اسمها ، وإذا لم تكن فى هذه ، ولا فى تلك ، فقد تكون منزوية فى كتاب من كتب الأدب ، التى تعتبر عمدة الباحثين ، ومرجع المتأدبين ؛ وحاشا لبنت قريش ، ولغة القرآن الحكيم ، أن يحيط بها مؤلف أو جامع ، إذ لم يخلق بعد من يستطيع أن يحملها على ظهر لسانه .

واعلم أن الألفاظ التى وردت إلينا قسمها العلماء من قبلنا إلى أفصح وفصيح وضعيف ومنكر ومتروك ورديء ومذموم ، وأئمة اللغة الأقدمون : كالخليل بن أحمد ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى ، والنضر بن شميل ، وابن الأعرابى ، وابن السكيت ، وأبى بكر بن دريد ، وغيرهم ، كانوا يؤلفون المعجمات ، ويدونون معانى المفردات اللغوية ، وكان الواحد منهم يرتضى الكلمة التى تصح عنده ، وينكر غيرها إذا لم تصح ، وهذه الكلمة التى صحت عند هذا قد ينكرها غيره لأنها لم تصح عنده ، كما قد تصح عنده الكلمة التى أنكرها غيره ، فيفتى بصحتها وسلامتها ، وقد تكون الكلمة فصيحة عند هذا ، ضعيفة أو منكرة عند ذاك . فمثلا : قال أبو على القالى فى أماليه . أخبرنا بعض أصحابنا عن أحمد بن يحيى أنه قال : حكى لنا عن الأصمعى أنه قيل له : إن أبا عبيدة يحكى : وقع فى روعى ، ووقع فى جخيفى ، فقال : أما الروع فنعم ، وأما الجخيف فلا . ومثلا الخربع – وهى من النساء التى تنثنى من اللين – والزوجة بتاء فى آخرها ، أنكرهما الأصمعى ، ولم ينكرهما غيره ، وكذلك أنكر جرعت الماء بالفتح ، وليس معنى إنكار الأصمعى هذه الكلمات وأشباهها ، أنك إذا أوردتها فى كلامك اليوم ، تلام على ذلك ، ويقال لك أخطأت . الحق لا ، وكل مافى الأمر أنك خالفت الأصمعى ، وسايرت غيره ، وكلهم عندنا ثقات . قالوا : البر أفصح من القمح والحنطة ، وضربة لازب أفصح من ضربة لازم ، واللغوب أفصح من اللغب ، فإذا استعملت القمح والحنطة ، وضربة لازم ، واللغب ، أيقال لك : إنك أخطأت ؟ ، اللهم لا ، وكل ماهنالك أنك عدلت عن الأفصح إلى الفصيح . وقد كان الأئمة ينكرون الكلمة اليوم ؛ ثم يقرونها غدا ، فإذا تسرعت وجاريت فى الإنكار ، لأنك لم تطلع على نص الإقرار ، لم تكن جارما على اللغة فقط ، بل على العلماء أنفسهم ، لأنك لم تزل تلصق بهم ، ماتبرءوا هم منه ، وإذا رجعت إلى صفحة ٢٠٣ من

الجزء الثانى من كتاب المزهر، للحافظ جلال الدين السيوطى، وجدت فيه أمثلة من هذا، ومنها: أجاز أبو زيد، رث الثوب وأرث، وأبى الأصمعى إلا أرث، ثم رجع بعد ذلك، فأجاز: رث وأرث.

وكما وقع ذلك فى اللغة فإنه وقع فى الشعر أيضا؛ فقد كان الرواة يروونه فيصدقهم من يصدق، ويقوم فى وجههم من يكذب؛ وبطون كتب الأدب مليئة بما كان يجرى بين بعض الرواة وبعض: قال محمد بن سلام الجمحى: كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها، حماد الرواية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد فى الأشعار؛ وقد قالوا مثل ذلك أيضا فى خلف الأحمر؛ فإنه كان يقول القصائد الغر، ويدخلها فى دواوين الشعراء، ومنها القصيدة التى أولها:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى أهل سواكم لأميل

دسها على الشنفرى. وليس من شأننا الآن التكلم عن الشعر وروايته، ولكن لندلك على مقدار عناية القوم بلغتهم وأدبهم. ألا ترى أن العالم منهم كان يؤلف معجما، فلا يكاد يعرفه الناس، حتى يتناولوه بالنقد، وهم فى ذلك بين مادح منتصر للمؤلف، وقادح مجرح له، فمن يحاول أن يتجنى على اللغة، أو يخلط بين طيبها وخبيثها، كانوا له بالمرصاد، واعتقادى أن لغة من اللغات لم تخدم بمثل ماخدمت به اللغة العربية، ويظهر أن أكبر باعث للناس، مع اختلاف العصور والأقاليم، على العناية بها، كونها لغة القرآن والحديث، واللسان الدينى لمئات الملايين من سكان المعمورة.

اقرأ ماحدث لكتاب العين الذى ألفه على الراجح الخليل بن أحمد، تجد أنه ما كاد يعرف حتى تناولوه بالطعن والتجريح، ولعظم منزلة الخليل عندهم، وارتفاع مقامه، نسبوا هذا الكتاب المطعون فيه إلى غيره؛ لأنه كما قال ابن عيينة: خلق من الذهب والمسك، وكانوا يميلون بينه وبين ابن عون فى

الزهد والعبادة ، فلا يدرون أيهما تقدم ؟

ومما يدخل تحت هذا ماجرى لثعلب فى فصيحه ، فإنه ألفه ملتزما فى تأليفه جمع الفصيح والأفصح مما ورد فى كلام العرب ، وأى شىء من العجب يدخل إلى نفسك إذا علمت أن أحد الشعراء امتدحه بقوله :

كتاب الفصيح كتاب مفيد يقال لقاريه ما أبلغه
بنىّ عليك به إنه لباب اللبيب وصنو اللغة

وإذا علمت أن كثيرا من العلماء عكف عليه وشرحه : كابن درستويه وابن خالويه والمرزوقى وأبى بكر بن حيان وأبى محمد بن السيد البطليوسى وأبى عبدالله بن هشام اللخمى وأبى اسحاق إبراهيم بن على الفهرى . إذا علمت هذا فاعلم أن أحد العلماء قام فى وجه ثعلب نفسه ، ونقد كتابه فى مواضع منه نقدا جعله يتبرأ منه ، وينحله غيره .

وقد كانت تقوم المنافرة بين العلماء ، فيجعل كل منهم همه أن ينتقص الآخر ، ويحط من قدره ، بنقد مايؤلف من كتب أيا كان نوعها وشأنها ، من ذلك أنه انتهى إلينا أن أبا بكر بن دريد صاحب الجمهرة ، كان بينه وبين ابن نفطويه إحن وضغائن ، جعلت ابن نفطويه يرمى ابن دريد بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ وتجريحه فى روايته ، وتسابا وتهاجيا ، ومما هجابه ابن نفطويه أبا بكر ابن دريد قوله معرضا بكتاب الجمهرة :

ابن دريد بقره وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجوهره
وهو كتاب العين إ لا أنه قد غيره

ولما رأى ذلك جلال الدين السيوطى قال : معاذ الله ، هو برىء مما رمى به ، ومن قرأ الجمهرة ، رأى تحريه فى روايته (المزهر ص ٥٨ جزء أول) .

ويروون أن المبرد ألف كتابا فى القدح فى كتاب سيبويه ، وأن ابن جنى

أفرد فى كتابه الخصائص بابا فى قدح أكابر الأدباء بعضهم فى بعض، وتكذيب بعضهم بعضا .

ولكن ما وقفنا نحن من كل ذلك ، وقد مضى عليه قرون كثيرة ، وأصبحنا نحصل اللغة ، ونرجع إليها فى الكتاب والسنة ، وفيما وصل إلينا من معجماتهم ، وكتبهم الأدبية ، ونحن نأخذ كل ماورد عنهم بالقبول والرضا ، ونستعمله فى كتاباتنا ، لأن التواتر ليس شرطا فى ثبوت اللغة ، وإن كان شرطا فى أدلة النحو .

واعلم أن المتواتر نفسه قد اختلف الأئمة فى تحديد معانيه ، قال السيوطى فى المزهر : نجد الناس مختلفين فى معانى الألفاظ التى هى أكثر الألفاظ تداولا ودورانا على ألسنة المسلمين ، اختلافا شديدا ، لا يمكن فيه القطع بما هو الحق كلفظة (الله) ، فإن بعضهم زعم أنها عبرية ، وقال قوم : سريانية ، والذين جعلوها عربية اختلفوا اختلافا شديدا ، ومن تأمل أدلتهم فى ذلك ، علم أنها متعارضة ، وأن شيئا منها لا يفيد الظن الغالب ، فضلا عن اليقين ، كذلك اختلفوا فى لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة ، فإذا كان هذا الحال فى فى هذه الألفاظ التى هى أشهر الألفاظ ، والحاجة إليها ماسة جدا ، فما ظنك بسائر الألفاظ اه . الجزء الأول ص ٦٩ ، ٧٠ .

أقول : إن المتواتر يحصل به العلم القطعى ، والآحاد يحصل به العلم الظنى ، ومن أمثلة المتواتر العربى الأصل أسماء الشهور والأيام ، والنعام والحمام والشمس والقمر والزهرة وعطارد ، والسيف والرمح والدرع ، ومن أمثلة المعرب الذى تواتر واشتهر حتى نسى الأصل المأخوذ منه : الكف والساق ، والفراش ، والبزاز والوزان ، إلى آخر ما أورده الثعالبى فى كتابه فقه اللغة (صفحة ٣١٤) .

أما المرسل الذى انقطع سنده فقد ذهب بعضهم إلى قبوله ، ولم لا نقبله

نحن ؟ . ومن أمثلته مانقله السيوطى عن جمهرة ابن دريد التى سبق أنه وقف نفسه موقف المدافع عنها ، قال : يقال: فسأت الثوب أفسؤه فسأ إذامددته حتى يتفزر ، وأخبر الأصمعى عن يونس قال : رآنى أعرابى محتبيا بطيلسان ، فقال : علام تفسؤه؟ . وابن دريدلم يدرك الأصمعى . وكذلك إذا رووا لنا أن أبا زيد يصحح البداوة بفتح الباء ، وأن الكسائى يقول : إن السبا بوزن جبل الخمر ، والموضع بفتح الضاد ، لغة فى الموضع ، وأن الجوهرى يصحح سائر بمعنى جميع ، ويسمون هذا رواية الأفراد ، فلم لانقبله ؟ ، وقدحكموامن قبل بقبوله إن كان المتفرد به من أهل الضبط والإتقان .

وهم إذا كانوا فى زمانهم يتشددون ، ولايقبلون إلا من الرواة الثقات ، الذين عرفوا بالصدق والأمانة ، وفصحت ألسنتهم ، ويبتعدون عمن حامت حولهم الشبه ، من الذين تمكنوا من العربية ، حتى يستطيعوا أن يدسوا على اللغة ماليس منها فى شىء ، فإنا فى زمن غير زمانهم ؛ لأن اللغة وصلت إلينا تراثا غاليا عزيزا ، مبرأ من كل مايشوبه ، ونحن لم نصل إلى ماوصلوا إليه من طرق العناية بها ، والاهتمام بأمرها ، ولكنها جاءتنا لقمة سائغة صالحة .

وقد لانعرف للمعنى الواحد غير كلمة واحدة ، وهذه الكلمة قد تكون غير فصيحة ، فماذا نحن صانعون أمامها ، لابدأن نستعملهارغم أنف المستعجمين الذين يجب عليهم أن يعلموا أن وراء المعجمات كتبا للأدب ، وأن وراء هذه وتلك كتبا لايحدها حصر فى النحو والتصريف ، من يعتن بها يستطع أن يحل كثيرا من المشكلات التى تعترضه كل يوم ، وإن كلمة ثقيلة قد يتعثر فيها اللسان مرة ، أو ينبو عنها السمع إذا طرقته — قد يلين لها اللسان بالتكرار ويألفها السمع بالتعود . وإن لغتنا العامية فيها كثير من الكلمات التى تعتبر ثقيلة على السمع أو يتعثر فيها اللسان قبل أن يعتادها ، ولكننا لم نتنبه إليها؛ لأن ألسنتنا مرنت على نطقها ، وآذاننا اعتادت سماعها .

ومع ذلك فإذا أعياك البحث والتوت عليك مسالكه ووجدت غيرنا من الفرنجة سموا مخترعاتهم بأسماء فإنى أرى أنه لاضير عليك ولاضير على اللغة العربية إذا استعملتها : فالتلفون عندى أفضل من المسرة ، والبنك خير من المصرف ، والراديو ألطف من المذياع [1].

أقول هذا وأنا أعتقد أن كثيرا من المدرسين وغيرهم قد لا يعجبهم ماأقول . وقد يسخطهم أيضا ، ولكنى مؤمن بأن هذا من صالح القول ، وبأنه خير لنا من الوقوف جامدين ، يقول لنا الناس : نمتم وأدلجنا . والمسألة ليست مسألة ألفاظ نتشبث بها تشبثا يصرفنا عن كل شىء فيه الخير ، فمتى سلمت الأساليب وجرت على القواعد العربية الصحيحة ، وحافظنا على التراث الذى وصل إلينا فلم نستبدل به غيره ، وسمينا الجديد مع اليسر والسهولة أسماء يقبلها ويستسيغها جمهور الناس قبل خاصتهم — متى فعلنا ذلك كله فقدقمنا بواجبنا ، وليس علينا بعد ذلك شىء . إذا اخترنا اللفظ الأعجمى الجديد الذى يدل على معنى جديد لم نعرفه ولم يعبر عن مدلوله عندنا بتعبير خاص . ولنا أسوة فيمن تقدمنا من العرب الذين عربوا كثيرا من الكلمات حينما اضطروا إلى ذلك فى عصر الترجمة زمن العباسيين الأولين ، وهذه الكلمات وصلت إلينا معبرة عن معانيها ودالة على مدلولاتها ، ولم تطغ على الصحيح الفصيح الذى كان يتكلمه أعراب البوادى وفصحاء الحواضر قبل أن يستعجم العرب ، وتفسد ألسنتهم .

***

ياقوم ؛ إن اللغة العربية أوسع من أن يصفها كتاب بين دفتيه ، وإن اللغة لم تحوها جميعا كتب اللغة ، فقد نجد فى كتاب أدب أو تاريخ أو ديوان

---

(١) هذا رأى للأستاذ ، له معارضون ، وله مؤيدون ، وقد عنى به كثير من العلماء — فليرجع من شاء إلى المناظرات التى قامت بين الأستاذين الاسكندرى والخضرى وغيرهما ؟ .

شعر ما لا نجده فى معجم من المعجات ، وكثيرا ما سمعنا من إخواننا الذين سبقونا إلى خدمة اللغة إنكارا لكثير من الكلمات أو الأساليب الشائعة ، وحاولوا جاهدين محاربتها وإماتتها ، إلا أنها شاعت شيوعا يستحيل معه القضاء عليها، ولكننا لم نلبث أن عثرنا عليها فى أثناء قراءاتنا الخاصة ، أو استطعنا أن نلتمس لها مخرجا من مجاز أو اشتقاق أو قياس ، فكتب لها البقاء سالمة من الطعن والتجريح .

ياقوم : هونوا على أنفسكم الأمر وأيسروا تنتفع بكم لغتكم ، وأدلجوا مع المدلجين حتى لا تغمطوا حقكم؟

محمد أحمد برانق

الانشاء فى المدارس الثانوية

للأستاذ محمد على مصطفى

اتجهت عناية وزارة المعارف فى العام الماضى إلى تدريس الإنشاء فى المدارس الثانوية ، فأرسلت مفتشيها لزيارة المدارس فى المناطق المختلفة ، وتقديم تقارير وافية عما يجدونه من نواحى الضعف أو القوة .

وقد ترتبت على هذه الحركة نتائج غير منتظرة ، أثارت السخط عند فريق من المدرسين ، والرضا عند فريق آخر .

وإنى لأتقدم إلى مدرسى اللغة العربية فى المدارس الثانوية ببعض الملاحظات التى عنَّت لى ، حين زيارتى لبعض المدارس ، واطلاعى على كراسات الأعمال التحريرية ، لعلهم يجدون فيها مايحفزهم إلى إجادة العمل ، والمبالغة فى إتقانه .

وأعتقد أن هذا أنسب الأوقات لإبداء هذه الملاحظات ، فنحن فى مفتتح عام دراسى ، نستعد للقائه ، والقيام بما يجب علينا فيه ، حتى نخدم لغتنا ووطننا ، بتنشئة جيل صالح ، مستعد لحمل التبعات التى تلقيها الأيام المقبلة على عاتقه .

١ — الطريقة :

يجرى تدريس الإنشاء فى جملته فى المدارس التى زرتها على طرق سليمة ، وإن كانت تتفاوت فى مبلغ الإفادة ، تبعا لاختلاف المعلمين فى كفايتهم العملية ، وحسن استخدامهم لهذه الطرق ، وتوفيقهم فى اختيار الموضوعات ، وأساليب إصلاحها ومداه .

وتدل كراسات التلاميذ غالبا على شىء من التقدم ، قد لا يكون سريعا جليا ، فى خلال عام دراسى واحد ، ولكن القارىء حين يتتبع الكراسات ،

سنة فسنة ، يشعر بالتقدم ، ويحسه فى نواح كثيرة ، يحسه فى الناحية العقلية ، إذ يدرك أن الأفق العقلى للتلميذ يمتد تدريجا . ويتسع حتى يشمل كثيرا من المسائل ، ويحسه كذلك فى ترتيب الأفكار ، ووضع كل فكرة فى مكانها اللائق من الموضوع . ويحسه فى الثروة اللغوية ، وفى القدرة على الترسل ، وفى تنوع أساليب البيان ، وفى جمال التصوير ، وفيما قد يكون للكاتب من سلطان أدبى على نفس القارىء ، ويحسه فى حسن السبك ، إذ تكون الجمل فى السنة الأولى قصيرة مفككة الأوصال ، والموضوع مهلهل النسج ، ثم يرقى الأسلوب شيئا فشيئا ، كلما قطع التلميذ سنة دراسية .

٢ — الموضوعات :

وتتبعت الموضوعات التى كتب فيها التلاميذ بالعد ، فوجدتها تتراوح بين أحد عشر وخمسة عشر ، ولكن غالب الكراسات يحتوى على ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر موضوعا .

وتناول المدرسون إلى جانب الموضوعات الكتابية موضوعات أخرى شفوية اقترحوها على تلاميذهم ، وناقشوهم عناصرها وطلبوا منهم أن يتحدثوا فيها .

والموضوعات الكتابية لا توزع على شهور السنة الدراسية ، توزيعا متناسبا ، ففى بعض الفرق يتم عدد الموضوعات المقررة فى نهاية شهر مارس أو قبلها ، أو فى منتصف أبريل غالبا ، ومعنى هذا أن التلاميذ لا يكلفون كتابة موضوعات إنشائية فى شهرى إبريل ومايو ، مع أن الكتابة عادة عملية ، تجود بالمزاولة ، ولا شك أن الأفكار يعتريها الجمود ، والأقلام تصدأ إذا لم تجرب الجديد من الأساليب ، والتجربة العملية أصدق شاهد على ما أقول .

وللمدرسين عناية باختيار الموضوعات ، إذ يتلمسونها من البيئة التى يعيش فيها التلاميذ ، ويؤثرون من بينها المشكلات المهة التى تشغل بال الناس ، وربما تجاوزوا البيئة الخاصة إلى البيئة العامة ، وإلى أحداث العالم برمته ، ولا سيما

الأمم التى تربطنا بها رابطة قوية ، من جوار ، أو دين ، أو صداقة ، أو اتحاد فى المصالح .

ومن بين الموضوعات عدد يثير حماس الشباب ، ويهيج عاطفته الوطنية . ويبعث فيه الاعتزاز بالقومية المصرية ، ويحضه على عمل الخير فى أوسع معانيه ، وأيسر سبله .

غير أن هناك موضوعات قليلة من الطراز القديم ، وموضوعات أراها واسعة المجال على الطالب ، فلا يستطيع علاجها علاجا شاملا موفقا ، لقلة علمه بها ، وبعده عن التفكير فيها ، اللهم إلا ماقد يصل إليه من معلومات متفرقة ، عن طريق الصحف أو نحوها .

وإنى لأذكر على سبيل المثال الموضوعات الآتية :

١ — فوائد الحيوان للسنة الثانية

٢ — الاقتصاد وآثاره « «

٣ — فوائد الحديد « الثالثة

٤ — أزمة القطن : أسبابها وعلاجها « «

٥ — توليد الكهربا من مساقط المياه « الرابعة

٦ — وصف القاهرة فى يوم مطير « الأولى بمدرسة أسيوط مثلا

٧ — شرف العظماء كالوردة إذا سقطت منها ورقة تناثر الباقى على الأثر } للسنة الخامسة

ولاحظت أن المدرسين يؤثرون الموضوعات الأدبية والخيالية على الموضوعات العلمية ، ولعل عذرهم فى ذلك أنهم ليسوا من رجال العلم .

والمقالات التى يقصد منها تحقيق مسألة تاريخية ، أو رأى فى الأدب والاجتماع لاوجود لها ، ولاحظت كذلك أن جميع الموضوعات من اختيار المدرسين ، وأن الفصل برمته يكتب فى موضوع واحد أو موضوعين على

الأكثر، مما يملى المدرس، وأرى أن يترك للتلاميذ — لاسيما فى الفرق المتقدمة — شىء من حرية الاختيار، فيتخير التلميذ، تحت إرشاد المدرس، الموضوع الذى يروقه ويتصل به اتصالا وثيقا، ويثير فيه لونا من ألوان الوجدان، حتى يدرسه ويسترسل فى الكتابة ويبدع فيه، وظاهر أن الإقناع فى الوقت الحاضر لايتوقف على المنطق وحده، بل قد يستطيع الكاتب القدير أو الخطيب المفوه، أن يأخذ بقلوب القارئين، أو السامعين، ويسخرهم لغاياته، وعماده فى ذلك ماتجيش به نفسه من حماس دافع، وقوة إيمان، وسحر بيان، حتى إذا لم يكن مايقوله حقا مسلما به.

ولذلك نجد التلاميذ يحسنون الكتابة فى الموضوعات التى تمس عاطفتهم

٣ — الإصلاح :

إن إصلاح الإنشاء من المشكلات المعقدة، التى حار فيها علماء التربية، والمدرسون يبذلون فيه جهوداً مضنية، ويقضون فى القيام به على وجه مرضى الساعات الطويلة، ولكن الفائدة التى تعود على التلاميذ منه قليلة، والتقدم بطىء.

ويرجع هذا إلى أن بعض المدرسين، حين يكتب صواب ماغلط فيه التلميذ بالمداد الأحمر، يزعم أن الإصلاح قد تمت مراحله، وأن ليس عليه بعد ذلك سوى أن يرد الكراسات إلى أصحابها، حتى يروا ماقد نالوا من درجات.

على أن البعض الآخر لايقف عند هـذا الحد، بل يعود على العلاج الإيجابى، فيناقش المخطئين فى صواب خطئهم، حتى يهتدوا إليه، فيكلفهم كتابة الصواب مرة أو أكثر، حتى يثبت فى أذهانهم، وتجرى به أقلامهم وألسنتهم.

أما الإصلاح الشخصى لتلميذ بعينه ففكرة لاتلقى قبولا عند عامة المدرسين، فإن للنظام الموروث سلطانا على نفوسهم ؛ لايستطيعون التخلص منه، فهم لايرون أن يقسم الفصل إلى جماعات، تقوم كل جماعة بعمل معين تحت

إشراف المدرس ، الذى يختص جماعة منها بالمناقشة والإرشاد ، إلى صواب ماحدث من خطأ ، لاشيوع له فى الكراسات ، مع أن هذا يسير ، وهو الطريق الفرد ، الذى يمكننا من الحصول على مزايا التعليم الجمعى والفردى معا.

وخير من الوقوع فى الخطأ ثم تلمس السبل لعلاجه سد المنافذ التى يتسرب منها الخطأ بادىء بدء ، وإنما يكون ذلك بالإشراف على التلاميذ حين يكتبون مسودة الموضوع ، وبالمرور بين صفوفهم لإفادتهم فى كل مايعرض لهم من مشكلات ، وبتعويدهم دقة الفكر وترتيب العناصر ، والاقتصار على ماله صلة وثيقة بالموضوع ، دون مبالغة ينبو عنها الذوق ، أو تهويل كاذب يطمس معالم الحقيقة ، أو ثرثرة تعافها النفس .

ويقوم المدرسون بإصلاح الموضوعات الإنشائية ويوزعون عنايتهم على النواحى الآتية :ـــ

١ ـــ الناحية الفكرية ،وتشمل النظر فى الأفكار التى تندرج تحت الموضوع من حيث صحتها وترتيبها وإحكام الربط بينها .

٢ الناحية اللغوية ، وتشمل مراعاة قواعد النحو والصرف ، وأصول البلاغة ، واستعمال الألفاظ فى المعانى التى وضعت بإزائها .

٣ ـــ الناحية الأدبية ، وأعنى بها أسلوب الأداء ، ومراعاة الذوق الأدبى فيه ، وجمال التصوير ، وحسن المدخل ، وسوق الأدلة فى وضوح وقوة ، والاستعانة بالمحفوظ من كلام البلغاء ، وحديث الرسول ،وآى القرآن الكريم فى المواضع التى يجمل فيها ذلك .

على أن الناحية اللغوية تنال جانبا كبيرا من العناية ، وأحيانا تطغى على الناحيتين الأخريين .

٤ ـــ العيوب الظاهرة .

والمتتبع لكراسات الإنشاء فى المدارس الثانوية يعثر فيها على العيوب

الآتية ، وهى لحسن الحسن قليلة الدوران ولـكنها تستحق العلاج .

١ — الثروة الفكرية عند التلاميذ قليلة ، وهى تجمع بين الصحيح والزائف.

٢ — إهمال الترتيب المنطقى ، أو الطبيعى فى الموضوعات الوصفية، وعدم تماسك الأفكار ، وسوق الدليل فى غير مكانه ، وفى كثير من الفتور والتخاذل.

٣ — الوصف فى الموضوعات الوصفية غير مشخص ، إذ يلجأ الطالب أحيانا إلى وصف صفات عامة لا تميز الموصوف من غيره ، والسبب فى هذا ضعف الملاحظة ، على ما أعتقد ، والحاجة إلى الثروة اللغوية .

٤ — عدم تقسيم الموضوع إلى فقر ، كل فقرة تؤدى فكرة ، على نحو ما نجد فى كتب اللغة الإنجليزية ، والكتب الجديدة فى اللغة العربية .

٥ — نزول الأسلوب واضطرابه ، والتواء جملة ، حتى لا تؤدى معنى ، أو يعز على القارىء أن يفهم المراد — هذا إلى عدم مراعاة وحدة الزمن ، وإلى ضمائر لا يعلم مراجعها ، وإلى خطأ فى استعمال الألفاظ ، وإلى انتقال فجائى من خطاب إلى غيبة ، ومن جمع إلى مفرد ، وهكذا .

ومثال ذلك ماورد فى بعض الكراسات .

١ — « بل ستضرب (وزارة الشئون) بيد من حديد ، وتنفذ بسيف القوة تلك المخازى الشاطئية ، والمراقص العريانة والشيوعية » .

٢ — « لقد كان لتلك المدنية الزائفة ، مدنية القرن العشرين ، ولهـذه الحضارة الملوثة بالجراثيم ، التى قلدنا بها الغربيين تقليدا أعمى ، مبعثه التقدم والرقى ، فكان مآله الانحطاط والتأخر ، ماجعلنا نحن الأمة المصرية الراقية الإسلامية ، أن نرى شبابنا يخرج وقد عملوا فى وجوههم وملبسهم ماتعمله كل فتاة رجاء البحث عن غانية سافرة » .

٣ — « أما أنه ذاهب إلى ميدان القتال طائع مختار (هكذا) فهذا فيه كل شك وأما أنه ذاهب إلى ميدان القتال وقلبه يتفتت وأحشاؤه تتقطع

فهذا مالاشك فيه . . . . » .

٤ — « إنى اشترى الوطن بدمى ، لأن الإنسان إذا عاش طول حياته حرا أفضل من أن يعيش يوما ذليلا » .

٥ — مجافاة الذوق الأدبى فى الأداء مثل :

١ — « الحرب ماؤه (هكذا) الدماء ، وسمكه (هكذا) الأموال والأنفس والثمرات » .

٢ — « ارتفع صوت المقرىء كأنه النجم الساطع » .

٦ - التهويل الذى يمسخ الحقيقة مثل .

١ — « فاقتصد المصريون فى معيشتهم ، وأموالهم ، لأن التجارة انقطعت عنهم برا وبحرا ، انقطاع الجذور عن النبات ، لأن البحر كان هائجا » فى أثر الحرب فى مصر .

٢ — « إن مال الأغنياء ليس لهم وحدهم ، بل لهم النصف ، وللفقراء الآخر ، وهذا أمر الله ، ومن يخالف أمره تعالى أعدت له النار سكنا » .

٧ — التكرار المخل بالفصاحة ، مثل :

١ — « ولكنه استعمل الروية ، وتأنى بعض الشىء ، فأخذ يفكر ، ويفكر ، وكيف لا يفكر ، ويجب عليه أن يفكر ، إذ هو الرجل الذى ينظر نظرة جدية إلى الأشياء » .

٢ — « إن لزيارة الرئيس آثارا لا يمكن حصرها ، ومزايا لا يسهل عدها ، وفوائد لا يمكن جمعها ، فهى وإن كانت فى ظاهرها زيارة ، فهى فى باطنها تفقد » .

٨ — تحريف فى بعض ما يساق فى ثنايا الموضوع من كلام البلغاء وآى القرآن الكريم .

٩ — علاج الخطأ بطريق إيجابى لا يلقى ما يستحق من عناية لدى بعض المدرسين .

١٠ – إهمال علامات الترقيم مع مالها من فائدة ، لاسيما إذا طالت الجمل واشتبك بعضها فى بعض .

١١ – الاختلاف فى تقدير الدرجات .

١٢ – قلة العناية بتنظيم الكراسات .

١٣ – رداءة الخط غالبا .

على أنى أسارع إلى أن أطمئن زملائى المدرسين ، فأعلن فى صراحة ، أننى قرأت لبعض التلاميذ موضوعات أدبية راقية الأسلوب ، وهى تبشر على الأقل بأنهم ، إذا استمروا على جدهم ومثابرتهم ، سيكونون كتابا مبدعين ، لهم قدرة على الإطالة ، والترسل ، وفيهم قوة الإقناع بما يسوقون من حجة ناصعة ودليل قوى .

محمد على مصطفى

٢ - التمثل في الأدب العربي

وحظ شعر المتنبي منه *

للأستاذ علي النجدي ناصف

لم يكن الإقبال على شعر المتنبي ، والإلحاح في كسب مودته على الصورة التي رأينا — من قلة الشعراء لعهده ، أو من نضوب قرائحهم ، أو غثاثة نتاجهم . كلا ؛ فإنهم يومئذ لكثير ، وإن منهم لفريقا مقدما ، يعد من الشعراء المجيدين ؛ خصب قريحة . وسراوة نتاج . ولكن سوء الحظ رماهم بالمتنبي ، وجمع بينهم وبينه في عصر واحد ، فأخملهم ، وشغل الناس عنهم ، كأن لم يكن معه أحد . وكأنه كان يعنيهم جميعا بقوله :

وما كمد الحساد شيئا قصدته ولكنه من يزحم البحر يغرق

نعم ، فنحن إذ نرجع إلى القرن الرابع الهجري ، نريد أن نتعرف المشهورين من شعرائه . يتصدى لنا أبو الطيب في المقدمة أظهرهم مكانا ، وأفرعهم عودا . وأجهرهم صوتا ، ونرى المعري في أثره : يتلوه كما يتلو اللاحق سابقه ، أو الثاني أوله ، ثم نرى الرضي وأبا فراس ، ولكن على مبعدة منهما . ونرى بعد ذلك بقية الحشد جملة واحدة ، كأن ليس بينهم تفاوت في المنزلة ، أو خلاف في المزية ؛ لأن شهرة المتنبي طغت عليهم ، فإذا هم جميعا خاملون أو كالخاملين ، وإذا الخصائص التي يمتازون بها لا حساب لها ولا نظر إليها . ومن يدري لعل الرضي وأبا فراس لم يظفرا وحدهما بهذا القسط من حفاوة الأدب والأدباء

(*) نشر الشطر الأول من هذا الحديث في العدد الأول من السنة السابعة .

إلا للحسب العريق الذى ينتميان إليه ، فليس كلاهما على مايبدو أرفع فنا ، وأبرع مزية من شعراء عصرهما جميعا .

والعجيب أن يبقى حظ هؤلاء الشعراء من الشهرة وإقبال الأدب كما تركه المتنبي . ورضى به القدماء بلا تغيير ، فنحن إنما ندرس منهم حين ندرس — الرضى أو أبا فراس ، ولا نكاد نتحدث عن الآخرين إلا يسيرا ، وفى قلة نادرة . وهكذا جنى المتنبي عليهم جنايته ، وسكت عنها القدماء ، وأخذنا نحن إخذهم حيالها ، فإذا المتنبي يحمد بما جنى ، وإذا الناس أجدر أن يلاموا على مالم يجنوا .

وإذا تركنا القرن الرابع جانبا ، ومضينا نتنقل فى القرون من بعده قرنا فقرنا — لانكاد نعثر على كتاب فى الأدب أوفى أى علم آخر يتصل به من قريب أو من بعيد إلا ذكر المتنبي أو تحدث عنه على نوع من أنواع الذكر أو الحديث . وهذا ديوانه قد أربت شروحه فى العصور الماضية على الأربعين ، وظهر له فى زماننا شرحان ، ووضع عن صاحبه أربعة كتب خاصة ، ونشرت عنه مقالات وبحوث ، وألقيت محاضرات لا تكاد تحصى كثرة . ولا يزال مجال الدرس والبحث يتسع لمن يريد .

وإذا لم يكن من الميسور لنا أن نصف أثر شعر المتنبي ومدى شيوع روايته فى جميع العصور ، فإن من الميسور لنا ولا ريب أن نصف ذلك فى عصره ، ولو وصفا مقاربا . وهو عمل ذو شأن ، يستحق العرض والاعتبار ؛ لأنه يكشف عن ناحية مهمة من نواحى العبقرية الفنية ، التى رزقها هذا الشاعر الفذ ، بل يكشف عن مثال فريد من أمثلة السيطرة الأدبية ، التى فرضها فرضا على الأدب فى عصره ؛ فخضع لها الناس ، وظلوا خاضعين لها بعد حياته دهرا غير قصير . فكانوا بالرغم من لدد الخصومة عند فريق ، وشنآن الحسد عند فريق آخر — يرون فى شعره المثل الأعلى ، الذي ينبغي أن تطال إليه أعناق الأدباء ، وتشحذ

عزائمهم للأخذ منه بوأفى نصيب ؛ فيكون لهم منه مادة دائمة ، يقبسون منها لنتاجهم الأدبى ماشاء الله أن يقبسوا : من الحكم البارعة ، والمعانى المستطرفة ، والآراء المسددة ، والبيان العبقرى الرفيع ، فإذا له من كل أولئك أومن بعضه قوة وجمال يغليان قيمته ، ويرفعان مكانته ؛ لهذا أكبوا على رواية شعره ، وإطالة النظر فيه ، والتعمق فى درسه ، والإحاطة بأسراره ودقائقه ، على نحو ليس له نظير فى شعر شاعر آخر . حتى لقد رويت عن بعضهم طرائف عجيبة من التلميح به ، تدل على أن القوم أو فريقا كبيرا منهم على الأقل — قد استطاع من طول ملازمته إياه ، وشدة انقطاعه له . أن يصطنع منه فى بعض المواقف أداة للتخاطب ، لا يشق على المتكلم أن يعبر بها ، ولا على السامع أن يفهم منها . وربما وقع هذا وذاك على البديهة والفور ، فإذا لكليهما شأن عجيب من الألمعية وبراعة الخاطر ، فوق ماله من شأن فى الرواية الشاملة ، والتوفيق فى الاستدلال.

وهؤلاء أساطين البيان لعهده وماوليه إلى وقت ليس بالقصير — كانوا فى آثارهم الأدبية من النثر والشعر ، يقبسون من شعره على صور شتى ؛ ماوسعهم الاقتباس ، وأسعدهم التوفيق ، لا يرون فى هذا حرجا ولا بأسا . وهذه أمثلة لمقتبساتهم من شعره .

قال الصاحب بن عباد يصف قلعة : « فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها ، وأبا سهلها ونجدتها ، جهلوا مابين البحور والأنهار ، فظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحصين ، ومثواهم القديم — نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق ، ومجر العوالى ، ومجرى السوابق » . فقد ألم هنا بألفاظ بيتين لأبى الطيب ، أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا إليه السهل والجبل

والآخر قوله :

تذكرت مابين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق

وقال الصابى فى تقريظ شاب : «ولقد آتاه الله فى اقتبال العمر جوامع الفضل ، وسوغه فى عنفوان الشباب محامد الاستكمال ؛ فلا تجد الكهولة خلة تتلافاها بتطاول المدة ، وثلمة تسدها بمزاياها الحنكة » وإنما هو حل مانظم أبو الطيب ، إذ يقول فى معنى آخر :

لاتجد الخمر فى مكارمه إذا انتشى — خلة تلافاها

وقال أبو العباس الضبى :«وقد أتانى كتاب شيخ الدولتين ، فكان فى الحسن روضة حزن ، بل جنة عدن ، وفى شرح النفس وبسط الأنس — برد الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف فى أجفان يعقوب» وهو من بيت أبى الطيب :

كأن كل سؤال فى مسامعه قميص يوسف فى أجفان يعقوب

وقال الخوارزمى : «ولقد تساوت الألسن حتى حسد الأبكم ، وأفسد الشعر حتى أحمد الصمم» . وهو من قول أبى الطيب :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول ، حتى أحمد الصمم

وقال ابن زيدون فى رسالته الجدية :« وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك » وهو من قول أبى الطيب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وقد أخذ ابن زيدون لهذه الرسالة من شعر المتنبى فى ستة مواضع ، وأخذ منه للرسالة الهزلية فى سبعة . وكلا المقدارين يقارب جملة ما أخذ لكلتا الرسالتين من أشعار الشعراء الآخرين .

وقال الببغاء :

«أو ليس من إحدى العجائب أننى فارقته ، وحييت بعد فراقه
يامن يحاكى البدر عند تمامه ارحم فتى يحكيه عند محاقه»

وهو من قول أبى الطيب :

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطانا من السقم المحاقا

وقال المهلبي :

تصارمت الأجفان منذ صرمتنى فما تلتقى إلا على عبرة تجرى

وهو من قول المتنبي :

قد علم البين منا البين أجفانا تدمى ، وألف فى ذا القلب أحزانا

وقال الصاحب :

لبسن برود الوشى لالتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

وهو من قول المتنبي :

لبسن الوشى لامتجملات ولكن كى يصن به الجمالا

وقال السرى :

وخرق طال فيه السير حتى حسبناه يسير مع الركاب

وهو من قول المتنبي :

يخدن بنا فى جوزه ، وكأننا على كرة ، أو أرضه معنا سفر

وقال الخوارزمى :

قد ظلمناك بحسن الظ ن ، يابعض الأنام

وهو من قول المتنبي :

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام

وقال البستى :

أبوك حوى العليا ، وأنت مبرز عليه ، إذا نازعته قصب المجد

وللخمر معنى ليس فى الكرم مثله وفى النار نور ليس يوجد فى الزند

وهو من قول المتنبي :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

وقال السلامى :

وبشرت آمالى بملك هو الورى   ودار هى الدنيا ، ويوم هو الدهر

وهى من قول المتنبي :

هى الغرض الأقصى ، ورؤيتك المنى،   ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائق

ويروى أن ابن العميد لما ماتت أخته ، ورد عليه نيف وستون كتابا فى التعزية ، مامنها إلا وقد صدر بقول المتنبي :

طوى الجزيرة حتى جاءنى نبأ   فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ورووا أن رجلا من بغداد كان كلما دخل بلدا ، وسمع فيه ذكر المتنبي يرحل عنه ، حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك ، فسأل عن أبى الطيب فلم يعرفوه ، فأقام هناك . ولما كان يوم الجمعة ذهب إلى الصلاة بالجامع ، فإذا الخطيب ينشد بعد ماذكر أسماء الله الحسنى — قول أبى الطيب :

أساميا لم تزده معرفة   وإنما لذة ذكرناها

فعاد إلى دار السلام.[1]

ومهما يكن نصيب هذه القصة من الحق والواقع ، ومهما تختلف الآراء فيها بين مصدق ومرتاب ، فالذى لاريب فيه ولا خلاف أنها دليل على شهرة الرجل ، وتغلغل أشعاره فى أدنى الأرض وأقصاها ، فما كان أحد ليفتعل هذه القصة افتعالا ، ثم يتقبلها الناس منه ، ويتداولوها بينهم بالرواية — إلا وهم يعلمون عن المتنبي من بعد الصيت ، ويعلمون عن شعره من شيوع التداول — مايسيغ لهم قبولها ، ويغريهم بتصديق نسبة مزاياها إليه .

ونسوق الآن أمثلة لما كان من التلميح والإشادة بشعره :

جرى ذكر المتنبي فى مجلس المرتضى ، وكان المعرى حاضرا ، فهضم

(١) راجع كتاب أبى الطيب المتنبى وأخباره ، ص : ٢٥ — ٣٠ ، والصبح المنبي على هامش التبيان : ١ : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ .

المرتضى من جانب المتنبى ، فقال المعرى :لولم يكن لهمن الشعر إلا قوله :

لك يامنازل فى القلوب منازل   أقفرت أنت ، وهن منك أواهل

لكفاه ؛ فغضب المرتضى ، وأمر بإخراجه . وقال : أتدرون ماعنى ؟ فقالوا : لا . قال : عنى به قول المتنبى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

ويروى أن الفتح بن خاقان ذكر ابن الصائغ فى قلائد العقيان ، وأساء إليه ، فبلغ ذلك ابن الصائغ ، فمر يوما على الفتح ، وهو جالس فى جماعة ، فسلم على القوم ، وضرب على كتف الفتح ، وقال : إنها شهادة يافتح . ومضى. ولم يدر أحد ماذا يعنى بما قال للفتح . لكن الفتح تغير لونه ، فقيل له : ماقال لك ؟ فقال : إنى وصفته كما تعلمون — فى قلائد العقيان ، فما بلغت بذلك عشر مابلغ هو منى بهذه الكلمة ، فإنه أشار بها إلى قول المتنبى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

ويروى أنه كان لاحد الأشراف خاتم ثمين ، فسقط من يده ، فقال ابن عم له : لم لم تقف على طلبه ؟ فقال : ألست من أبناء أمير المؤمنين ؟ أشار الأول إلى قول المتنبى :

بليت بلى الأطلال ، إن لم أقف بها   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

وأشار الآخر إلى قول المتنبى أيضا :

كذا الفاطميون ، الندى فى أكفهم   أعز امحاء من خطوط الرواجب[١]

وسأل بعض الشعراء [٢] سيف الدولة : لماذا يفضل الأمير علىَّ ابن عيدان السقاء [٣] ؟ قال : لحسن شعره . فقال : أيها الأمير ، اختر أى قصيدة

---

(١) الرواجب : مفاصل أصول الاصابع .

(٢) روى العكبرى هذ القصة منسوبة إلى الخالديين : أبى بكر الخالدي ، وأخيه عثمان . راجع التبيان : ١ : ٤٥٢ .

(٣) يريد المتنبي ، وكان والده معروفا بهذا الاسم .

له ، فأعارضها بأحسن منها . فقال سيف الدولة : عليك بقصيدته التي أولها :

لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقى   وللحب مالم يبق منى ومابقى

فلم يرها من مختاراته ، فأمعن النظر ؛ فرأى فى أثنائها .

بلغت بسيف الدولة النور رتبة   أثرت بها مابين غرب ومشرق .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غبارى ، ثم قال له : الحق .

فامتنع من معارضتها ، وعلم قصد سيف الدولة (١) .

هذه أمثلة لمقتبسات الكتاب والشعراء من شعر المتنبي ، أردنا بإزجائها مجرد الاستشهاد وعرض النماذج ، لاالحصر والاستقصاء . وهى مع قلتها تدل على اتساع رواية شعره إلى غاية لانعرف لها مثيلا ، وتصور لنا كيف كان القوم يسطون به جهرة ، ويأخذون منه بغير حساب ، وتشهد بأنهم لم يجدوا آخر الأمر بدا من الإذعان لزعامة الرجل ، والاعتراف عملا بأن أقواله فى الأغراض التى قيلت فيها هى على الإجمال آيات من الأدب الرفيع ، تأخذ من الإحسان والسداد بأوفى نصيب ، وتجرى فى ميادينها مجرى الأمثال المرسلة . أو المصطلحات المقررة ، لاغضاضة أن تقتبس على حالها ، أو على أى لون من ألوان الاقتباس ؛ لأن محاولة الإتيان بمثلها أو خير منها تكلف لاغناء فيه ، ولا طائل تحته . وإلا فما لهم كانوا يتزاحمون على شعره ، ويستقون منه على الصورة التى رأينا ، وهم أقطاب الأدب وأشباه أقطابه لهذا العهد ، ومنهم الحاقدون عليه ، الجاهدون فى هدمه وانتقاص فنه ؟ وإذا كان هذا شأن هؤلاء ، وهم من عرفنا ، فكيف الظن بغيرهم ممن يلونهم فى المكانة والمواهب ؟

أما بعد ، فلم يبلغ شعر المتنبي هذه المرتبة من الرواج وكثرة الدوران على الألسنة عنوة ، وإنما بلغها عن جدارة وكفاية . ومانريد هنا أن نستوفى القول فى استقراء مزاياه وتفصيل خصائصه ، فذلك مجال عريض ، لايتسع له المقام

(١) راجع الصبح المنبي : ٢ : ٦١ — ٦٦ ، ١٠٧ .

ولا يقتضيه . وحسبنا أن نشير إشارة مجملة إلى بعض مااختص به هذا التراث الكريم ، الذى خلفه شاعر العربية الأكبر .

وأول مايستوقف النظر من أمر هذا الشعر ، أنه فى صياغته وأسلوبه لايجرى على سنن واحد ، ولا يلتزم هندسة معينة ، أوجرساخاصالا يعدوه،فإذا هو وحدات متوافقة أو متماثلة ، لايكاد يبدو بينها خلاف كبير فى الديباجة والتاليف ؛ ذلك لأن الرجل كان واثقا أعظم الثقة بنفسه ، متمكنا أشد التمكن من لغته . ولم يكن فى طريقته تابعا مقلدا ، ولكن إماما مجددا ، يؤثر المعنى على العبارة ، ويختصه بعنايته كلها فلم تكن به حاجة إلى مصانعة النقاد ، أو تملق الذوق العام ؛ لذلك كان يطلق نفسه على سجيتها ، تهيم حيث تشاء ، وتقع أنى تريد ، وتحلق حيث يطيب لها التحليق ، لايسيطر عليها مسيطر ، ولا يوجهها موجه ، إلا ماتكون فيه من شأن ، أويحيط بها من أسباب التفتح والإقبال ، أو التقبض والإعراض ، فتعلو وتسف ، وتسهل وتجبل ، وتنشط وتفتر . تدخل روضا ، أو تنزل قفرا ، وتجىء بدرة أو تجىء بصدفة . وكلما وقع له شىء تقبله ، ولم يحاول التغيير منه أو التحوير فيه ، ولكن يسرع إليه، فيكسوه مما حوله على حسب مايتهيا له ، غير جاهد فى التفصيل ، ولاملتزم فيه نمطا خاصا ، ثم يعرضه كما وقع له ، فى صدق وأمانة وصراحة : منه اللين الرقيق ، والجافى الغليظ ، ومنه الجارى على السليقة والطبع ، والآخذ من الصناعة والزخرف ، ومنه السمح المشرق الديباجة ، والعابس الجهم المقطب الجبين ، ومنه الأليف الطبع ، والشاذ المتمرد على القياس والإلف .

ثم إن توقد خاطره وازدهار الفلسفة والعلم لعهده ، وشغفه بالقراءة والدرس ووفرة مادته من اللغة — كل أولئك قد أتاح له العبارة فى نظم الحكمة وضرب المثل ، على نحو لم يسبقه إليه سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق . كانت حكمته وأمثاله تمزج الفلسفة النظرية بالتجربة العملية ، المنتزعة من الحياة الواقعة ، أو بعبارة

أخرى كانت تجمع بين حكمة الحكماء، وتجربة المجربين وكان أكثر الأحيان يرسلها فى شطر بيت، أو فى بيت تام، كأنها الحقيقة المقررة، أو القانون الثابت لاخلاف عليه، ولا شك فيه. وربما آنس منها بعض الخفاء أو اللبس، أو بداله أن المقام يقتضى شيئا من التوسع والبسط؛ فيتناولها إيضاحا وتبيينا، أو يعود إليها بالتقسيم والتفريع: يسوق إليها المثل المحسة، أو التشبيهات الضمنية البديعة، أو الأقيسة الصادقة المطردة، فإذا هى فى بيت واحد كذلك، أو بيتين اثنين، أو عدة أبيات، ولكنها على كل حال كانت تكون موجزة لافضول فيها ولا حشو، خفيفة سائغة، كأنها الأمثال السائرة، أو الآيات المنزلة؛ لذلك خف موقعها على القلب، ولطف مدخلها إلى النفس، ولاتزيد على التكرار والمعاودة إلا حلاوة وظرفا.

وهكذا يخلف لنا أبو الطيب من فنه وحكمته معرضا فخما، رائع المشاهد، متعدد الجوانب، خالدا متجددا، لاينفض موسمه، ولاتبلى جدته، مابقى للعربية ذكر فى هذه الحياة. بل إنه ليقيم لنا من هذا الفن وتلك الحكمة مآدب مكللة حافلة، يجد فيها كل امرىء مايلائم ذوقه، ويتفق مع مزاجه، فالأديب واللغوى، وعالم النحو والبلاغة، والفيلسوف، والمربى، والأخلاقى، وغيرهم، يجدون جميعا عنده الكفاية مما يشتهون، وإن شئت فقل: إن أبا الطيب إنما خلق لنا من فنه وحكمته دنيا عريضة، تجمع كثيرا مما فى دنيا الناس: من حق وضلال، وخطأ وصواب، ودمامة وجمال، ونجاح وإخفاق، وهى مع ذلك زاخرة بالحياة، فياضة بالقوة فى كل لون من ألوانها، وكل منحى من مناحيها، فتهيأت الأسباب لاصطناع شعره فى شتى المواقف والمناسبات، حتى شعره المعيب لم يعدم مواقف يزجى إليها، ومناسبات يستشهد به فيها.

هذا بيته المشهور:

علّ الأمير يرى ذلى؛ فيشفع لى   عند التى صيرتنى فى الهوى مثلا

قد عابه النقاد عليه . ورموه من أجله بفساد الذوق ، وقلة البصر بأدب المدح ، ومع ذلك أتيح له من غراميات جوته ، شاعر الألمان حادث ينطبق عليه ، ويحقق معناه ، فإذا له نصيب من الحياة والذكر يعادل نصيبه من تداول الوقوع . قال الأستاذ العقاد ! . . . لقد خطب الرجل (يعنى جوته) ، وهو فى الرابعة والسبعين فتاة فى التاسعة عشرة ، فلما أعرضت عنه تشفع إليها وإلى أمها بأميره ، الذى حقق فيه قول أبى الطيب : عل الأمير [١] ، البيت .

وهذه أبياته المعقدة وضعيفة التأليف ، تلق من النباهة وشيوع الاستعمال فى تعريف الفصاحة والتمثيل للكلام غير الفصيح مثل مايلق شعره الآخر من ذلك فى المواضع التى تقتضى اصطناعه والتمثيل به .

ولست أدرى ماذا كان يصنع حضرات السادة مدرسى اللغة العربية والمؤلفين فى قواعدها ، لو لم يسعفهم أبو الطيب بهذه الذخيرة الضخمة ، الجامعة لما يحتاجون إليه فى دروس البلاغة والنحو ودروس الإنشاء وغيرها ؟ أكبر الظن أنهم كانوا مضطرين إذ ذاك أن يبذلوا جهدا كبيرا فى البحث والتقصى هنا وهناك فى شتى المصادر ، لعلهم يجدون مايريدون .

ولعل خير مانختم به هذا البحث كلمتان بارعتان ، لفقيد اللغة والأدب ، الأستاذ المرحوم أحمد الإسكندرى ، إحداهما تلخص فضل شعر المتنبى على الثقافة والأدب فى العصر الحاضر ، والأخرى تحدد مكانة شعره بين سائر الأشعار .

قال (رحمه الله) فى مذكرة أدب اللغة فى العصر العباسى : « وللمتنبى من الحكمة والأمثال مايربو على كل شاعر تقدمه . وقد أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه . وما من كاتب ، أو خطيب ، أو متكلم ، أو

(١) تذكار جيتى ، ص : ٢٩ ، ٣٠ .

مناظر، أو مدرس، إلا وله من حكم المتنبى مدد أيما مدد »[١].

وقال فى إحدى محاضراته المدرسية: « لو كان للشعر قرآن لكان شعر المتنبى قرآن الشعر». رحم الله شاعرنا وأستاذنا، وأثابهما بما أسديا إلى الأدب واللغة والثقافة من صنيع.

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

(١) ص: ٢٧٩، ٢٨٠.

الأدب الحديث

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

أريد أن أبث القلم عصارة آرائى فى الأدب الحديث ، ولا أقيد نفسى باتباع ماتواضع الناس عليه وأرخوه ، أو ماخطته يراعة الكتاب والشعراء أوفاه به الخطباء فى هذا الزمان . وسأرسم للأدب خطوطا قد تكون ثائرة، وقد تكون منخولة.وقد تكون عارضة ، وإنما هى على كل حال نجوى نفسى، وأمل أرجو أن يتحقق جله إن لم يكن كله . وأبدأ بالشعر فهو ترف من الترف فى هذه الحياة الصاخبة التى لم تستوف ضروراتها بعد حتى تنصرف إلى إتقان الشعر وتمثيله للحياة الاجتماعية أو لأنواع الإحساس التى تضطرب بها نفس الشاعر ونفوس الناس معه ، أو لأنواع الخيال الرائع الذى يبلغ أقصاه من سلامة الذوق ولطف التعبير والضرب على الوتر الحساس حتى تنتفض له القلوب وتتحرك له الدماء . فالشعر الحديث محاولات تريد أن تبلغ المثل الأعلى فتجهل طريقه . أهو تقليد الشعراء الأقدمين ؟ فيعيش الشاعر فى جو غير جوه ، وبيئة أصبحت فى ذمة التاريخ ، وناس كان لهم من تركيب أذهانهم اتجاهات غيرها العصر الحديث كل التغيير .

أهو تقليد الشعر الإفرنجى لمن عرف الإفرنجية والعربية ؟ إذاً فسيكون الشاعر شقيا بإحدى اللغتين ، عسير عليه التوفيق بينهما ، والذى ظهر لنا إلى الآن تركيز قوى الشاعر فى إحداهما ؛ فإن كانت القوى فى جانب الإفرنجية تعثر به الأسلوب العربى ، واستغلق عليه إبراز المعانى فى الثوب العربى الواضح؛

فهو كالطائر فى القفص يحاول بطيرانه فى جهاته الأربع أن يظفر بالحرية، وهيهات أن تسمح له أجنحته بالتمتع بمزاياها ، ثم يحاول أن يجدد فى المعانى العربية فلا يستطيع أن يغزو الأذهان حتى تستطعم لذة معانيه فتنصرف عنه، ويعيش شعره فى أورافه حبيسا ينتظر الفناء الطبيعى .

ولذلك يحرص هذا الفريق من الشعراء على حماية أنفسهم من النقد والتعريف بمجهودهم فى الصحف والمجلات،ولكن إقبال الأذواق على شعرهم لم يجىء بعد ؛ إذ ينقصه الأسلوب الذى يرضى الروح العربيةويعجبها ،فيذهب شعرهم بذهاب أعمارهم .

وقد تكون القوة فى جانب العربية إما لأن الشاعر لم تتغلغل نفسه فى تذوق الشعر الإفرنجى،وإما لأن قوته تركزت فى الشعر العربى ، أو عرف العربية وحدها وتأثر بالبيئة الاجتماعية والأدبية وقرأ الأدب الأوربى المترجم، فيستلهم الشاعر من الأدب العربى فى الأغلب وإن حاول إبراز بعض المعانى الإفرنجية فى ثوب عربى جاء شذرات لاتكفى للتجديد المطلوب .

ولا أنكر على هؤلاء أنهم خدموا الشعر،وسايروا بعض الميول والعواطف، واستطاعوا أن يجدوا لهم قراء وعشاقا ، وستخلد بعض دواوينهم مابقيت الروح العربية متمشية فى أعطاف العالم العربى ؛ ولكن هذا الشعر ليس المثل الأعلى الذى أريده،وإنما أريد أن يكون ترجمان نفس الشاعر مرة وقومه مرة أخرى، وأن تتجاوب أصداء هذه العواطف بين الشاعر ونفسه، وبينه وبين قومه وجيله،بحيث يفرض شعره فرضا على الخاصة والعامة فيرددونه ويشغفون به . ويقول المؤرخون فى المستقبل غير كاذبين : إن الشعر الحديث فى فترة من الفترات يمثل البيئة فيما هو من خصائص الشعر ، ويكشف عما يصطرع فى أذهان الناس من خير وشر وهدى وضلال .

ومهما يكن من شيء فقد تجيء موجة جديدة من الشعر يسوقها جيل المستقبل إن وجد تشجيعا وتوجيها صحيحا، وإلا ظل يتعثر أيضا فى أذياله؛ لأن حاجة الدولة ـ فى عصور الضرورات الحافزة كما قلت ـ إلى الشعر تجيء حين حين تخلص من إكمال مقومات الحياة الأدبية، ثم تنصرف إلى الإطراب فيستحيل إلى ضرورة ويعنى به الناس فيتكامل ويرقى .

وقد يتهم الشعراء نفسية الشعب بالقصور، ولا يتهمون أنفسهم بالتقصير، ثم لا يستحيون أن يقال عنهم : إنهم لم يستطيعوا من سنوات طويلة أن يخلقوا لنا نشيدا وطنيا يتغنى به العامة والخاصة، وطالما ترددت هذه الأناشيد التى صنعوها ثم فترت حدتها ، ومن العجيب أن تتدخل الدولة فى فرض بعض الأناشيد فيكلف بها المذياع ، ويختبطها طولا وعرضا ثم يحييها لنفسه إن شاء ويميتها إن شاء ، والشعب يسمعها عرضا فى غير وعى ولا لذة .

ويشتاق المصلحون هذا النشيد الموموق ، ويعقدون له المباريات فيجيء جزلا فلا تصعد إليه الأذهان ، وقد يجيء رخوا فلا تنزل الأذهان إلى مستواه ، فهو بين جزر ومد حتى يبعث الله ذلك الشاعر الذى ينتظره عشاق الأدب وسواد الأمة ؛ فنحن فى حيرة فلسنا نجد الشاعر الذى يبدع النشيد الذى ينتظم الأمة صفا واحدا ويعبر عما يعتلج فى نفوسها حقا فى الحاضر والمستقبل ثم يأخذ بزمام العقول والعواطف فتجد فى هذا النشيد سلوة نفسها وشعار نهضتها.

أريد شاعرا كالمتنبي يقول الشعر فى حلب فتترد أصداؤه فى الشام ومصر والعراق والجزيرة والأندلس .

كان الصاحب بن عباد يستثقل المتنبي ويكلف بنقد شعره والزراية عليه لحقد كامن فى نفسه ؛ فكان أعجب عجبه أن يموت بعض أقاربه فتجيئه رسائل التعزية من كل مكان مصدرة ببيت المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

فكان ذلك الصنيع أبلغ رد عليه ، ومن لنا بقوة نفس المتنبي وطموحه الذى ينتقل إلى السامعين فيلهب مشاعرهم ويلعب بعقولهم .

فالشعر الحديث يحتاج إلى فهم نفس الأمة والتعبير عن أهوائها ، وإلى الصراحة والصدق والخيال الرائع والأسلوب الغنائى الذى يناسب الروح العربية.

أما ذلك الأسلوب المنطفىء الذى يقوله مقلدو الفرنجة فالمقياس بيننا وبينهم إقبال القراء عليه والتعلق به إن وجد أذنا تسمع وقلبا يعى .

على أن الشاعر الملهم تلده الظروف الحيوية فشوقى ولده التعلق بالخديو والسياسة والأمة وترف العيش ، وحافظ ولده البؤس وظروف حيوية أحاطت بالأمة وتشجيع أعيان مصر ، والجارم ولدته دقة الحس والقدرة على البيان العربى ، وعلى محمود طه تهالك على اللذات فأجاد وصفها ، وأخونا عبد الحميد الديب ، ضربه الزمان بمطارقه ضربات لم يضرب بها أحدا من الناس ؛ فأجاد وصف البؤس إجادة نادرة فى الشعر العربى ، ولقد رأيته ليلة كتابة هذه السطور فوجدت البؤس والشعر امتزجا فى نفسه امتزاجا غريبا وكونا شيئا واحدا ، هو صورة من الخيال الشعرى البائس ، ولقد قلت له : إن شعرك سيكون خالدا فى هذا الفن ، وتحدثت إليه فى نصائحى له فى زمن مضى عن الحياة والعيش والأدب فلم يجبنى إلا عن عظمة البؤس إن كان للبؤس عظمة ، وأسمعنى شعرا طربت له ، وأخذتنى الحيرة التى تأخذنى كلما رأيته ، ومن عجيب الأمر أن كل إنسان تجرى عليه دورة الفلك من نعيم إلى بؤس إلا أخانا عبد الحميد فقد شاء القدر أن يتبادل هو وشعره فى هذا الحظ المقدور .

أريد للغة العربية شعراء ينغرسون على شاطىء الأمة كلما تكسرت موجة من موجات الحياة عليه يكونون تراجمتها وألسنة البيئة والجمال الذى يتقلبون

فى أعطافه ، والحضارة التى ينعمون بمجاليها أو يشقون بقسوتها . ولقد حضرنى فى هذا المعنى قول حافظ فى مقدمة كتاب البؤساء : «فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامى الماء والقث بلا إدام

وهو فوق راحلة طالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة . إذا أرته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول ، وسرد من الوصف مايبلغ حد الإعجاز ، وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام مايضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة (الأوتومبيل) تحت ذلك الظل الظليل فى مخارف ضفاف النيل على فراش وثير ومتكأ من حرير بين نسيم عليل وماء سلسبيل . ذلك المركب الذلول الذى لاتلحق به صافنات الجياد ؛ فوقفنا أمامك موقف الحائر لانعرف له اسما يدل على مسماه ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه» . هاهى ذى الحرب تفتك بالعالم فتكا ذريعا ، ويشقى بها الناس جميعا حتى ليخيل لكل إنسان أن صاعقة توشك أن تنقض عليه فتهلكه بعد أن دمرت مادمرت، وأزهقت ما أزهقت ، وهل تفعل الصاعقة فعل القنابل المحرقة والمدمرة ؟ فكم شاعرا استطاع أن يصور اضطراب نفسه واضطراب الناس معه ؟ إنما هى مقطعات سطحية المعنى فاترة الروح قريبة القرار نقرؤها على صفحات الجرائد والمجلات كأن الشعراء إلى اليوم عجزوا عن تصوير صدق إحساسهم ومايدور بخلدهم فى هذا الموقف العصيب . عجزوا عن تصوير جهنم تمتد على سكان الأرض فيصبحون صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ومن نجا منهم أعجله سقوط القصور الشامخة عليه فى لحظات .

بقيت كلمة أبى العلاء المعرى التى يرددها تاريخ الأدب وهى (أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري) ذلك أن أبا العلاء ضيق من حقيقة الشعر ،

وأخرج منه الحكمة ، وجعل غرض الشعر الخيال ، ولئن صح ذلك كان أبو العلاء مخرجا نفسه من زمرة الشعراء ، ولست أظنه يقصد ذلك على حقيقته كما فهمه مؤرخو الأدب، بل يقصد أن أعظم مظهر للشعر هو الخيال والإعراب عن الشعور والوجدان ، وهذه الصفة متجلية فى شعر البحترى ، وهذا لا يمنع أن يمثل الشاعر عصره أصدق تمثيل ، وأن تكون المعانى المصورة للحياة من صميم الشعر،فإذا لم يرض عنها القراء فذلك راجع لضعف الشاعر عن إتقان التصوير لا بسبب أن الغرض ليس من المعانى التى من مجال الشعراء .

ولقد كان لى حديث فى هذا الشأن مع المرحوم الشيخ الخضرى ونحن طلبة فى دار العلوم .

دخل الأستاذ ليفتش فى حصة نصوص فوجدنا نشرح قصيدة المتنبى يعزى عضد الدولة فى عمته التى أولها :

آخر ما الملك مُعزّى به   هـذا الذى أثّر فى قلبه

فلما جئنا إلى قوله :

نحن بنو الموتى فما بالنا   نعاف ما لابد من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا   على زمان هى من كسبه

فهذه الأرواح من جوه   وهـذه الأجسام من تربه

لو فكر العاشق فى منتهى   حسن الذى يسبيه لم يسبه

أخذ الأستاذ رحمه الله يناقش المعانى ثم انتهى إلى أن قال (المتنبى ليس بشاعر بل هو حكيم) فانبريت له قائلا : ولم لا يكون الحكيم شاعرا ؟ الحكمة نبعة من العقل تكشف عن حقيقة الحياة ونظام الكون . وكلا الخيال والحكمة من نتاج العقل البشرى فالشاعر المصور والشاعر الحكيم يعتمدان على القريحة وكلاهما يتجه إلى التأثير وتملك العواطف والميول وتغذية الأفهام ،

وظللنا كذلك حتى صلصل الجرس ،

فالشعر كما أوضحت فى هذا المقال يجب أن يعبر عن شخصية الشاعر وشخصية عصره ولا يزال نقاد الأدب فى عصرنا هذا متأثرين بكلمة أبى العلاء تأثرا واضحا.

ويحضرنى فى هذا المقام نبذة كتبها الأستاذ محمد صبرى فى مقدمة رسالته عن البارودى « ذلك بأن الشعر العصرى ليس معناه وصف المخترعات العصرية من قاطرات وطيارات وما شاكلها – وإن كان ذلك لا يمنعه من التعرض لها – فهذا فى الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه عن الوقوف بها طويلا قال البارودى :

طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى   بزجاجة العينين فهو مصور

وسرت بجسمى كهرباءة حسنه   فمن العروق به سلوك تخبر

لولا التنفس لاعتلت بى زفرة   فيخالنى طيارة من يبصر

انظر إلى هذه الأبيات الثلاثة التى اضطررنا إلى ذكرها الآن لأنها جامعة. تجد البارودى أشار فى البيت الأول إلى آلة التصوير أو (الفتوغرافيا) وفى الثانى إلى الكهرباء والسلوك ، وفى الثالث إلى الطيارة .

خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامى والماديات ، وبين ماء السماء الصافى وماء المستنقع الآجن ، فظهر شعره فى تلك الصورة التى يأباها الذوق السليم .

هذه الأبيات ليست من الشعر العصرى فى شىء ، لأنها ليست من الشعر »

وهكذا رأينا الأستاذ صبرى يحرم على الشعراء الخروج عن دائرة الخيال الشعرى والوحى إلى العلم، وهو عين ما قال أبو العلاء فى ثوب آخر . على أنا لا نشاركه الرأى فى الحكم على أبيات البارودى فهى وإن لم تصل إلى المنازل البارعة من شعره إلا أنها تصوير لطيف ، فوصف القاطرة والطيارة

والكهرباء وأمثال ذلك باب من الوصف وإن اعتمد على العلم وفيه مجال للخيال الخصيب .

وهذا الرأى الذى نرد به على أبى العلاء وعلى الأستاذ صبرى لم يفت المتقدمين فقالوا : « الأديب من أخذ من كل فن بطرف » يعنون أن تكون معلوماته العامة واسعة حتى يغذى ملكته ويتفنن ما شاء . وأحسب المقال لا يتسع لتوضيح رأيى فى الكتابة والخطابة . وسأرجئه إلى العدد الآتى إن شاء الله .

حسنين حسن مخلوف
مدرس بالإبراهيمية الثانوية

حيلة « القائمقام »

للأستاذ عبد الرزاق ابراهيم حميدة

كان يقيم فى قرية من قرى مديرية الغربية أسرة نزحت من أعالى مصر إلى الوجه البحرى ، واتخذت مقامها قريبا من النهر الذى يجرى من تحت هذه القرية فى دار كإحدى دور القرية لا تمتاز بشىء من الرونق ولا الزخرف . وكان أصحابها تجارا يشتغلون ببيع الحبوب وشرائها ، ويعيشون على مايكسبون من البيع والشراء ، ويدخرون مما يربحون شيئا لعاديات الزمن .

وحسنت سمعة هذه الأسرة ، وتوطد مركز رئيسها « عم عريان » من الناحية المالية ، فاشترى بعض المزارع ، وعرف بين الناس بالأمانة وحفظ الودائع ، فاستودعه أكثر القرية أموالهم الزائدة ، وحليهم التى يخشون عليها من الضياع ، وكان الرجل عند حسن ظنهم ، فكان يسهر على هذه الأموال ، ويضعها فى حرز حريز ، ولا ينام إلا محتضنا القدر الذى يحفظ فيه الودائع ، ويخزن فيه الأموال ، وحاول اللصوص أن يصلوا إلى شىء مما فى يده فضاعت جهودهم ، وفشلت محاولاتهم .

واتفق أن اضطر رب الأسرة ، والأمين على ودائع القرية ، أن يسافر إلى بلد بعيد يقيم فيها أياما معدودة لقضاء بعض أعماله ، وكان له ولد ، وكان هذا الولد شابا فتيا مغرورا يجيد الرماية ، ولا يرى إلا متأبطا بندقيته ؛ ظنا منه أن ذلك يبعث الرهبة فى الصدور ، ويدعو إلى الاحترام والتقدير . فاستودعه أبوه هذه الودائع ، وأوصاه بالحرص عليها والحذر من اللصوص . فوعده أنه سيبذل كل ما فى وسعه للمحافظة عليها ، وسوف يسهر بجوارها طول غيابه حتى يعود فيسلمها إليه ، ولكنه كان فى نفسه يضحك من والده الذى لا يقدره قدره ، ولا

يعترف له بالبطش والسطوة والرهبة كما يعترف شبان القرية جميعا .

وتسلم ابن «عم عريان» الودائع ، وسافر والده ، وصار الابن يأوى إلى الحجرة التى فيها القدر كل ليلة مبكرا . وبجانبه بندقيته عامرة بالرصاص ، فأنكر منه أصحابه ذلك التبكير وسألوه عن السبب الذى يصرفه عن مجالسهم الساهرة منذ غاب والده ، وكان الظن أن يسهر أكثر من قبل ، فأخبرهم خبر الودائع ، وأنه يسهر على حراستها حتى يعود والده ، وسمع اللصوص بخبر ذلك الشاب المفتون الغرير القلب ، الذى ظن فى بندقيته خير الظنون ، وحسبها وحدها تغنى عن التكتم والمداراة .

وبيت موسى أحد اللصوص الأشرار فى نفسه أن يسطو وحده على الحجرة التى ينام فيها ابن «عم عريان» والقدر المملوءة ذهبا وفضة . وصبر حتى نام الناس ، وتسلق جدار دار «عم عريان» وفتح باب حجرة الأمانات ، فألفى الشاب نائما نوما عميقا وبندقيته على مسافة منه ، فحمل القدر ، وغطى الشاب ، وشكر له هذه الفرصة السعيدة التى هيأها له ليصبح من الأغنياء .

وتفقد الابن فى الصباح ودائع أبيه فلم يجدها فجن جنونه ، وطار قلبه ، ولطم خديه ولم تغن عنه بندقيته ، ولا شجاعته من اللص شيئا ، وسمع الناس بالخبر ، فجاء أصحاب الودائع سراعا تعلوهم الحسرة ، ويقتلهم الحزن على أموالهم الضائعة ، وتوافد النساء يبكين حليهن ، ويندبن حظهن ، ويصرخن ويهولن .

وكان يحكم القسم الذى تقع القرية فى دائرته «قائمقام» تركى ، وكان رجلا طويل القامة ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، أقنى الأنف ، يفتل شاربيه ، ويرسل لحيته ، وكان شديد البطش مرهوب الجانب ، وكان قوله فصلا . وقضاؤه غير مردود .

فاشتكى إليه ابن «عم عريان» ما نزل به . وقص عليه القصة تفصيلا . فغاظه أن يكون مثل هذا الشاب راقدا فى الحجرة فتفتح وتسرق منها القدر ، وهو نائم لا يستيقظ ، فأمر به فضرب عشرين سوطا . ثم دعا إليه أعوانه من الشرطة ،

وركب جواده الأشهب . من القسم إلى القرية،وسمع الناس بقدومه فى القرية، فخرجوا لينظروا ماهو فاعل فى أمرهم ، واستقبله العمدة خارج القرية،وسحب جواده إلى دار «عم عريان» وترجل «القائمقام» أمام الدار ، ثم نظر إليها من جهاتها المكشوفة . ثم صعد إلى الحجرة المخصوصة ، وتقدم من بابها وابتدأ يخاطبه :

من سرق النقود ؟

ولم يرد الباب طبعا ، ودهش الناس أشد الدهشة ، وظنوا بالرجل خبلا ، ولكنهم لا حيلة لهم ولا يملكون شيئا إلا الضحك سرا من هذه العقلية الغريبة.

وأصر «القائمقام» على استجواب الباب مرة أخرى فقال له :

من سرق النقود ؟ ألا تجيب ؟ أولى بك أن تجيب . وأن تخبرنى عمن سرق الأمانات ، وإلا كنت أنت الجانى الوحيد .

لعلك لم تسمع ببطشى وشدتى على الخائنين . فإما أن ترشد إلى المجرمين، وإما أن أقطع أوصالك بسوطى .

والباب ساكت لا يجيب ولا يرد . وتغيظ «القائمقام» وأمر بالباب فخلع، وحمل إلى الجرن الواسع فى الناحية الشرقية من القرية ، ومن ورائه «القائمقام» وأعوانه وجموع كثيرة من أهل القرية،فلما توسط الجرن أمر به فوضع عن الأعناق ، وسمر فى الأرض بمسامير . ثم نزع «القائمقام» سوطه من جانب وتقدم إلى الباب قائلا :

مازالت أمامك فرصة تنجى نفسك فيها من عقابى . فأرشدنى إلى السارقين. والباب المسكين لا يعرف بأى لسان يجيب ، وظل صامتا لا ينبس ، وألهبه «القائمقام» بسوطه .

وعجبت الجموع المحشودة من هذا الحاكم ! وظنوا به مسا من الشيطان ، أو خبلا فى العقل ، أو غباء عظيما . وسمع الناس فى القرية بأمر «القائمقام» وخرجوا على بكرة أبيهم إلى المكان الذى يجلد فيه الباب ، ولم يبق فى دور

القرية غلام أو رجل أو امرأة إلا خرج ليشهد هذا العقاب العجيب ، ينزله حاكم القسم بباب من الخشب لايحس ولايعقل . فلما اكتمل جمعهم ، ورأى «القائمقام» أنهم شهود لم يتخلف منهم أحد ، وأيقن أن السارق . بينهم . كف عن الضرب وتقدم من الباب قائلا :

الآن آلمك الضرب ، وتريد أن تعترف ! يالك من غبي أحمق ! أما كان أولى بك أن تعترف من أول الأمر ؟ أخبرني بسرك وأنا أكف عن جلدك .

وذهل الناس ، ودهشوا من رغبة الباب فى الاعتراف أكثر من عجبهم لعقابه ، ومال « القائمقام » بأذنه عليه ، وقال :

الآن ينجيك اعترافك .

وسأل الناس عما قال الباب ، فأجابهم «القائمقام» إنه يقول : إن الله قد أنبت فى رأس السارق ريشة ، وقد أحس بها ، وهو يريد الآن أن ينتزعها من رأسه خشية الفضيحة .

ثم نظر إلى أهل القرية نظرة حادة حذرة حريصة ، فلمح رجلا قد وضع يده على رأسه مرات ، كأنه يحاول أن ينتزع منها شيئا ، فنادى الحاكم أعوانه أن أمسكوه ، وجاء الرجل إلى جوار الباب ، وطلب منه أن يأتى بالمسروق ، فأنكر أنه السارق ، وأبى أن يرشد إلى شيء لم يسرقه ، ولا يعرف له موضعا ، وأمر «القائمقام» به فطرح على الباب ، وشد وثاقه إليه ، وصب عليه سوط عذابه فمزق جلده ، وأسال دمه . وهو مصر على الإنكار ، يُشهِدُ الله أنه برىء ، وأنه مظلوم ، والقائم لايرحمه ولايخلى سبيله ، حتى استيأس منه ، ورأى أن يجرب منه آخر حيلة من حيله ، فنادى حلاقا ، وحلق رأسه ، وأمر بموقد وزيت ووعاء ، وأشعل الموقد ووضع عليه الزيت فى الوعاء حتى غلى ، ثم خير الرجل بين الاعتراف ، وبين صب هذا الزيت على رأسه ، فصاح الرجل مذعورا وقد انخلع قلبه وطار فؤاده :

لقد أخفيت هذه الأشياء فى حقلى . فإذا خليتم سبيلى جئتكم بها .

عندئذ فك وثاقه ، وذهب مع اثنين من الشرطة إلى المكان الذى أخفى فيه السرقة ، ثم عاد بعد قليل يحمل وزره على ظهره . والناس مايزالون فى ذهولهم من حيلة «القائمقام» وهوى صاحب الأمانات على قدمه يقبلها ، ويسأل الله أن يبقيه دهرا ، وأن يؤيده وينصره .

وأما موسى السارق فقد رأى العار ممسكا به ، ورأى أنه لن يمحو أثره إلا الهجرة من القرية ، فغادرها هو وأولاده ، وارتحل إلى قرية أخرى ، ونزل بجوار ضريح ، وأرسل لحيته ، وقام على خدمة الضريح والمسجد بقية حياته ، ونسى الناس أمره فى بلدته . اللهم إلا بين الحين والحين عندما كانوا يذكرون حادثته مؤرخين بها أعمار بنيهم ، وأعمارهم .

عبد الرزاق ابراهيم حميدة

الحروف الهجائية

للأستاذ مهدى أحمد خليل

يحتاج إلى تعرف الحروف الهجائية أصولها وفروعها من يرغب فى تبين لهجات العرب المستحسنة والمستهجنة، ومن يبغى أن يسلك مُسْتَنَّهم فى النطق بالحروف التى ليست من لغتهم؛ ليستغنى بذلك عن وضع قواعد جديدة للنطق بالحروف الأعجمية عند تعريب الكلمات[1]، ومن يريد إرجاع الأمم العربية الحالية فى جميع الأقطار من طريق لهجاتها إلى أصولها العربية الخالصة وهاك بيانها :

الحروف الهجائية ضربان: أصلية، وفرعية، فالأصلية هى الثمانية والعشرون حرفا المعروفة التى توجد فى جميع لهجات العرب. والفرعية هى التى توجد فى لهجات بعض قبائلها، ومواضع استعمالهم لها قليلة.

والفرعية ضربان: مستحسنة وهى التى أخذ بها فى القرآن الكريم وفصيح الكلام، ومستهجنة وهى التى لم يؤخذ بها فيهما.

الحروف الفرعية المستحسنة

(١) همزة بَيْنَ بَيْنَ، وهى التى تجعل بين مخرجها ومخرج الحرف المناسب لحركتها، ويظهر ذلك فى المشافهة دون الكتابة، فإن كانت مفتوحة تجعل بين الهمزة والألف، وإن كانت مضمومة تجعل بين الهمزة والواو، وإن كانت مكسورة تجعل بين الهمزة والياء، وتكون متحركة بحركة ضعيفة يُنحَى بها نحو الساكن وهذا مذهب البصريين، وأما الكوفيون فزعموا أنها ساكنة. وقد أجملنا الكلام فيها فى بعض أعداد الصحيفة.

---

(١) والعربى كما عرب الكلمة عرب الحرف.

(٢) الحرف الذى بين الألف والياء، ويسمى ألف الإمالة وألف الترخيم، وهو فرع الألف المنتصبة، والإمالة الميل بالفتحة إلى جانب الكسرة، ويستلزم ذلك الميل بالألف إلى جانب الياء. والإمالة لغة تميم وسائر العرب ماعدا الحجازيين. وهى لغة أهل جبل لبنان الآن. ومن العرب من يميل الفتحة قبل الألف إمالة خفيفة ويسمى ذلك ترقيقا أو إمالة صغرى. ومواضع الإمالة مبسوطة فى كتب الصرف.

(٣) الحرف الذى بين الألف والواو ويسمى ألف التفخيم، وهو الذى تجده بين الألف والواو عند الحجازيين فى نحو الصلاة والزكاة والحياة والغداة، ومن أجل ذلك كتبوها بالواو هكذا (الصلوٰة، الزكوٰة، الحيوٰة، الغدوٰة كلها كتبت بالواو ولفظها على تركها) لأن الألف مالت نحو الواو، كما كتبوا إحداهما وسواهن هكذا (إحدىٰهما، سوىٰهنّ) لإمالة الفتحة قال ابن الجزرى فى كتاب النشر فى القرءات العشر: « وأما الألف فالصحيح أنها لاتوصف بترقيق ولا تفخيم بل بحسب ما يتقدمها فإنها تتبعه ترقيقا وتفخيما، أى أنها إن تقدمها حرف من حرف الترقيق وهى الحروف المنخفضة أو المستفلة ترقق، وإن تقدمها حرف من أحرف التفخيم وهى الأحرف المستعلية تفخم، والأحرف المستعلية سبعة وهى الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف، وماعداها الحروف المستفلة » وقال أبو البقاء: « أصل الصلاة الصلوَة قلبت واوها ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها فصارت الصلاة تلفظ بالألف وتكتب بالواو وإشارة إلى الأصل المذكور واتباعا للرسم العثمانى مثل الحيوٰة والزكوٰة والربوٰ ». وقال ابن درستويه: « لم تثبت الواو فى غير القرآن الكريم. وفى الكافى: الربا قد تكتب بالواو (الربوٰ) وخط القرآن لايقاس عليه. وقال ابن خروف: الألفات أربع الألف الطبعية المعتادة، وألف الإمالة، وألف التفخيم، والألف التى بين اللفظين

فى مثل الأبرار. ثم قال : ومن التفخيم ألف الاستعلاء فى اسم الله فخمت هى واللام قبلها. وهو فرع الألف المنتصبة .

(٤) اللام المغلظة (١) ، وهى فرع المرققة ، وتغلظ وجوبا فى اسم الله تعالى إذا وقعت بعد فتحة أو ضمة نحو شهِدَ اللهُ ويشهدُ الله ، ربَّنَا اللهُ وإذْ قالوا اللهمَّ ، وإذا فصل اسم اللهِ عما قبله وابْتُدِيءَ به فُتحت همزة الوصل وفخمت اللام من أجل الفتحة . وترقق اذا وقعت بعد كسرة نحو بالله بإجماع القراء ، وتغلظ وجوبا إذا جاورت حرفا من حروف الإطباق على رأى الجمهور وهى الصاد والضاد والطاء والظاء نحو صلاة وضلال وطلاق وظلام ، وقيل إن جاورت حرفا من أحرف الاستعلاء السبعة التى تقدمت. وقال ابن الجزرى : واللام يحسن ترقيقها لاسيما إن جاورت حرف تفخيم نحو ولا الضالين .

(٥) الحرف الذى بين الواو والياء فى لغة كثير من قَيْس وأَسد . وفى نحو قِيلَ وبيع المبنيين للمجهول ثلاث لغات ، إخلاص الكسر وهو لغة قريش ومن جاورهم ، وإخلاص الضم وهو لغة هُذَيل ، والإشمام وهو لغة كثير من قيْس وأسد كَفَقْعَس (أبى حىّ من أسد) ودُبَيْر (أبى قبيلة من أسد) .

(٦) النون الخفيفة أو الخفية أو الغنة ، وهى فرع النون الخالصة ومخرجها من الخيشوم وهو مؤخر الأنف المنجذب إلى داخل الفم ، وإنما يكون مخرجها من الخيشوم إذا سكنت ووقع بعدها حرف من الحروف الخمسة عشر الآتية وهى (التاء والثاء والجيم والدال والذال والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والفاء والقاف والكاف) ومع غير هذه الحروف تكون بينة

(١) قال ابن الجزرى: تغليظ اللام تسمينها لا تسمين حركتها والتفخيم مرادفة ، إلا أن التغليظ فى اللام والتفخيم فى الراء ، والترقيق ضدهما

غير خفية ماعدا أحرف الإدغام ، وهى أحرف يرملون وحرف القلب[١] وهو الباء .

(٧) الحرف الذى بين الجيم والشين ، وهو فرع الجيم الخالصة ، وذلك إذا سكنت وكان بعدها دال نحو الأجدر أى الأحق ، أو تاء فى الأغلب نحو اجتمعوا . وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم فى بعض اللغات قالوا : اجدمعوا واْجدَزَّ فى اجتمعوا واجتزَ .

(٨) الحرف الذى بين الجيم والزاى . والجيم الساكنة إذا وقعت قبل الدال جاز باطراد أن تكون بين الجيم والزاى فى النطق .

(٩) الحرف الذى بين الشين والزاى فى نحو أَشْدَق أى واسع الشِّدقَيْن وهما جانبا الفم والشين إذا سكنت قبل الدال جاز باطراد أن تشرب شيئامن صوت الزاى . وهو فرع الشين الخالصة .

(١٠) الحرف الذى بين الصاد والزاى . وهو فرع الصاد الخالصة .

وكل صاد ساكنة أو متحركة بعدها دال يجوز قياسا أن تشرب شيئا من صوت الزاى فتكون بَيْنَ بَيْنَ نحو مَصْدر ويَصْدقُ وأَصْدَقُ وقرأ به حمزة والكسائى فى قوله تعالى : « ومَنْ أَصْدَقُ منَ الله قِيلا » . أما إذا فصل بينهما بفاصل نحو المصادر أو لم تكن بعدها دال نحو مصانع والصراط فإن الإشراب سماعى قليل . وعن أبى عمرو فى الصراط أربع لغات : الصاد الخالصة ، والسين الخالصة ، والزاى الخالصة ، والصاد المشمَّة وهى التى بين الصاد والزاى . وقرأ حمزة الصراط بالإشمام . وإذا وقعت الصاد ساكنة وبعدها دال ففيها ثلاث لغات : الأولى أن تجعل صادا خالصة ، والثانية أن تجعل زايا خالصة ، والثالثة أن يضارع بها الزاى أى أن تشرب شيئا من صوتها فتصير بَيْنَ بَيْنَ .

(١) القلب جعل النون ميما خالصة قبل الباء ، والاقلاب لغة ضعيفة .

تنبيـــــه

فى الارتشاف . «وإذا سكنت قبل الدال صادٌ أو جيم أوشين نحو يصْدر وأجْدَر وأشدَق جاز أن يضارع بالصاد والجيم والشين الزاى . ويجوز إخلاصها فى الصاد وهى لغة كلب وكعب وعُذرة وبنى القيس .

الحروف الفرعية المستهجنة

الذين تكلموا بالحروف المستهجنة من العرب هم الذين خالطوا الأعاجم فحاكَوْهم فى النطق كى يستقيم التفاهم بينهما لمرونة ُلسُن العرب وسهولة النطق بالحروف الأعجمية عليها ، على الضد من لسُن الأعجام الذين تأبى عليهم صلابتها النطق بالحروف العربية . وهاك بيان تلك الحروف .

(١) الحرف الذى بين الجيم والكاف عند أهل اليمن فى نحو جَمَل ورَجل يقربون الجيم من الكاف . وهو فرع الجيم الخالصة .

وفى فقه اللغة للصاحبي : أن الحرف الذى بين الجيم والكاف والقاف لغة سائرة فى اليمن .

(٢) الحرف الذى بين الكاف والجيم فى نحو كاب وهو فرع الكاف الخالصة ، وهو لغة فى اليمن كثيرة فى أهل بغداد . وقيل هى لغة أهل البحرين (ما بين البصرة وعُمَان) وعُكْل (أبى قبيلة من الرِّباب ، والرباب أحياء ضبَّة) . وفى المزهر: من العرب من يجعل الكاف جيما كالجعبة يريد الكعبة .

(٣) الحرف الذى بين القاف والجيم عند أهل البوادى فى نحو قال وهو فرع القاف الخالصة . وهو لغة العامة فى قرى ريف مصر ، وسكان المدن يضعون الهمزة موضعها . وقال بعضهم: القاف الخالصة لغة قريش .

(٤) الحرف الذى بين القاف والكاف فى لغة تميم فى نحو قال . وهو فرع القاف الخالصة . وفى فقه اللغة للصاحبي : وبنو تميم يلحقون القاف باللَّهاة

(اللَّهاة من كل ذى حَلْق اللَّحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم) حتى تغلظ جدا وتكون بين القاف والكاف وهذه لغة فيهم، قال الشاعر:

ولا أُقول لِقدرِ القَومِ قد غَلِيَتْ

ولا أقول لبابِ الدَّارِ مَقفُول

كل ذلك بإشراب القاف شيئاً من صوت الكاف، وتسمى القاف المعقودة، قال السيرافى: رأينا من يتكلم بالقاف بينها وبين الكاف وهى الآن غالبة فى لسان أهل البوادى من العرب حتى لايكاد عربى ينطق إلا بالقاف المعقودة لابالقاف الخالصة الموصوفة فى كتب النحويين والمنقولة بوصفها الخالص على ألسنة أهل الأداء من أهل القرآن الكريم. وقد تقدم أن القرشيين هم الذين ينطقون بالقاف الخالصة كما ينطق بها المُسِنُّون من أهل بُلْبَيس ورشيد وماجاورهما. والحرف الذى بين القاف والكاف هو لغة المُسِنِّين من أهل بُرْدين وطاوط بالشرقية يشربون القاف فى نحو قلبي شيئاًمن صوت الكاف.

(٥) الحرف الذى بين الجيم والزاى فى نحو جمل وجار واْخرُجْ (إذا لم تكن الجيم ساكنة وبعدها دال كما تقدم، فإنها فى هذه الحالة تكون لغة فصيحة).

(٦) جعل كاف المخاطبة حرفابين الجيم والشين فى الوقف فى نحو غلامكِ ولكِ وبكِ وأعطيتُكِ أنشد أبو بكر لمجنون بنى عامر:

فعَينَاكِ عيناها وجِيدُكِ جيدُها ولكنَّ عظمَ الساقِ منْكِ دَقيق

وذلك كله بجعل كاف المخاطبة حرفا بين الجيم والسين. ومنهم من يجعلها شيناً (١).

(١) والعادة فى مصر يلحقون هذه الشين بكاف المخاطب أيضا بعد الأفعال بعد تغيير شكل التاء اللاحقة بالأفعال الماضية يقولون: «ما أكلش وماتا كلش وما كلمتكش وما كلمتنيش.»

قال ابن يعيش : وقد قرىء قوله تعالى : قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا – قَدْ جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيا . وقد يجرى الوصل مجرى الوقف كما تقدم فى البيت السابق .

(٧) قال الصاحبي فى فقه اللغة : والحرف الذى بين الجيم والشين والياء فى المذكر نحو غلامج وفى المؤنث غلامش .

(٨) الحرف الذى بين الصاد والسين فى نحو صابر وَصَبَغ ، وهو فرع الصاد الخالصة ، وهو لغة بعض المترفات فى مصر والمتشبهين بهن والأطفال .

(٩) الحرف الذى بين الطاء والتاء فى نحو طالب وطبق وسلطان ، وهو فرع الطاء الخالصة ، وهو لغة تسمع من أهل المشرق . وهى فى لسان أهل العراق كثيرة . وقال السيوطى فى الهمع : وهى تسمع من عجم أهل الشرق لفقد الطاء فى لغتهم .

(١٠) الحرف الذى بين الظاء والثاء فى نحو ظلم وظاهر ، وهو فرع الظاء الخالصة .

(١١) الحرف الذى بين الباء والفاء فى نحو بور جمع بائر أى هالك وبَلْخ (كُورة بخراسان ، وقيل بلد شهير بها) وأصْبَهان (بلد شهير ببلاد العجم) وهو فرع الباء الخالصة . وفى الارتشاف:وهى كثيرة فى لغه أهل الفرس .

(١٢) الحرف الذى بين السين والزاى فى نحو شمس وفُسْتُق (ثمرة شجرة معروفة) وهو فرع السين الخالصة . وكل سين ساكنة قد يضارع بها الزاى على قلة نحو أسْدَلَ ثوبه يُسْدله أى أرخاه يرخيه ، قال سيبويه بعد أن أنكر المضارعة :والمضارعة فى الصاد أكثر وأعرف منها فى السين يعنى أنه تجوز فيها المضارعة على قلة .

(١٣) الحرف الذى بين الزاى والسين فى نحو زُهير ، وهو فرع الزاى الخالصة .

(١٤) الحرف الذى بين الشين والزاى فى نحو اشْرَبْ ، بشرط ألا تكون الشين ساكنة وبعدها دال نحو أشْدَق كما تقدم . وهو فرع الشين الخالصة .

(١٥) الضاد الضعيفة وهى التى لا يُشْبَع مخرجها ولا يعتمد عليه بل تُخَفَّف وتُخْتَلس فيضعف إطباقها وتصير بين الضاد والطاء أو بين الضاد والظاء . وقيل هى المحرفة عن مخرجها يمينا أو شمالا .

(١٦) حرف بين الياء والجيم فى الوقف سواء أكانت الياء للإضافة أم للنسب فى نحو غلامى وبصرىّ . قال الراجز وقد أجرى الوصل مجرى الوقف

خَالِى عُوَيْفٌ وأَبُو عَلِىّ   الـمُطْعِمَانِ اللحمَ بالعَشِىّ
وفى الغَدَاةِ فِلَقَ البَرْنِىّ

وذلك بإشراب الياء شيئا من صوت الجيم . والفِلَق جمع فِلْقة وهى الكِسْرة ، والبَرْنِىّ نوع من التمر . قال الصاحبى : والياء قد تجعل جيما [١] . فى نحو غلامى وكذلك الياء المشددة فى النسب نحو بصرىّ وكوفىّ .

ويتضح مما تقدم أن الحروف الأصلية والفرعية بقسميها أربعة وخمسون حرفا .

الحركات الأصلية والفرعية

الحركات الأصلية ثلاث ، وكذلك الفرعية . والحركات الفرعية هى :

(١) حركة بين الفتحة والكسرة فى لغة تميم وهى الفتحة الممالة .

(٢) حركة بين الفتحة والضمة فى لغة الحجازيين فى نحو الصلاة .

(٣) حركة بين الضمة والكسرة فى لغة كثير من قيس وأسد فى نحو قيل وبيع المبنيين للمجهول .

مهدى أحمد خليل

---

(١) أى فى الوقف وقد يجرى الوصل مجرى الوقف .

المـــــــروءة المقنعة

— ٢ —

للأستاذ محمود غنيم
المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

الفصل الثاني

يرفع الستار عن المنظر المشار إليه بالمنظر الثاني من الفصل الأول . دار الامارة التي يحكمها عكرمة الفياض ، وتقع حوادث هذا الفصل بعد حوادث الفصل الأول بمدة شهور . « سعد وسعيد » جالسان في البهو . الغلام « قيس » واقف بالباب :

سعد - لقيس قيسُ

قيس : نعم

سعد : أين الأمير المفضل ؟

قيس : صبرا قليلا بعد حين ينزلُ

سعيد - لسعد : هات حـديث ذلك النهارِ ياسعد أنت جُعبة الأخبارِ

سعد : اليوم عندي خبر جـديدُ لكنه يسوء ياسعيـد

سعيد : يسوء . ماتفصيل ذلك الخبرْ ؟

سعد : أما سمعته . ظننته انتشرْ ؟

الناس يهمسون أن عكرمهْ أقيل

سعيد : حقا كيف هـذا وله ؟

سعد : لاعلم عندى ياسعيد بالسببْ

سعيد فى دهشة : أقيل من منصبه ؟ ياللعجبْ !

وهل درى عكرمة بالأمر

سعد : لا ياسعيد ، إنه لايدرى

سعيد : من ياترى حاكمنا الجديدُ ؟

سعد : خزيمة بن بشر الصنديد

سعيد : لقد سمعت أنه بالشام   هل عاد منها ؟

سعد : عاد من أيام

من بعد ماتقلد الوظيفهْ   قلده رايتها الخليفهْ

سعيد : لعل واشيا دس بعكرمهْ   عند سليمان إلى أن ظلمه

سعد : دعنا فإن الأمر لايعنينا   من سادنا جئناه طائعينا

سعيد : نحن بطانة لكل والِ   نظفر من يديه بالنوالِ

عكرمة وهو داخل عليهما :

سلامى عليكم

سعد وسعيد : عليك السلامْ   أميرَ الجزيرة يابن الكرامْ

سعد : تأخرت هذا الصباح قليلاً   فهل كنت مستغرقا فى المنام ؟

عكرمة : لم أغف إلا برهة لعمرى   هَوَّمتها بعد صلاة الفجرِ

سعد : وما الذى استدعى السهاد ياترى؟

عكرمة : رؤيا نفت ياسعد عن عينى الكرى

سعد وسعيد : خيراً

عكرمة : رأيت أمس فى المنامِ   ليثا هصورا واقفا أمامى

أمسكنى فى قوة وبأس   فانزلقت عمامتى عن رأسى

وكان خلف الليث أو قدامهْ   شخص فجاء وارتدى العمامهْ

ثم أتى الليث المصور ثانيا مبتسما بعد العبوس راضيا
مقدما لى طيلسانا زاهيا

سعد وسعيد : خيرا رأيت أيها الأمير

عكرمة : لكننى لم أدر ما التفسير ؟

هنا يدخل خزيمة بن بشر وكان قد ذهب إلى الشام وعاد بعد أن قلده الخليفة ولاية الجزيرة بدل عكرمة .

الحاجب قيس : ياسيدى ،خزيمة بالباب

عكرمة : أدخله ياحاجب بالترحاب

خزيمة – وهو يدخل : أهدى إليكم سادتى سلامى

الجميع : يامرحبا بالبطل الهمام

عكرمة – لخزيمة : هل كنت حقا فى بلاد الشام ؟

خزيمة : نعم ولكن لم يطل مقامى

عكرمة : متى عدت من هذه الأربع ؟

خزيمة : قدمت الجزيرة من أربع

عكرمة : وكيف سليمان كيف دمشق ؟

عكرمة – وقد سكت خزيمة فى ارتباك :

لماذا سكت ؟ ألم تسمع ؟

خزيمة – فى خجل وارتباك :

سليمان خط إليك كتابا وأرسل هذا الكتاب معى

عكرمة – فى دهشة : كتاب.

خزيمة : نعم

عكرمة : أين هذا الكتاب ؟ تفضل به يارفيع الجناب

يتناول عكرمة الكتاب ويتلوه فيجد مضمونه عزله وتولية خزيمة مكانه

فيجزع ثم يقول فى تأثر

عكرمة : رباه هل أنا فى منامى أحلم؟ قوموا اقرءوا هذا الخطاب وترجموا

ويحى ! أمير المؤمنين أقالنى أمر به سبق القضاء المبرم

هـذا منامى قد تأول عاجلا وضح الخفاء إذن وبان المبهم

سمعا أمير المؤمنين وطاعة إنى لأمرك مذعن مستسلم

الملك للرحمن جل جـلاله يعطى المهيمن من يشاء ويحرم

ماذا جنيت؟ لعل قوما بى وشوْا عنـد الخليفة إنه لا يظلم

إنى لعهد بنى أمية حافظ أبنيهمُ إن كان غيرى يهدم

كلا لعمرى ماهممت بريبة والله يسمع ما أقول ويعلم

ثم يتنحى عن مكانه ويأخذ بيد خزيمة ويجلسه على كرسيه ويسترسل فى أنشاده

قم ياخزيمة أنت أنت أميرنا هذا مكانك كلنا لك خُدَّم

أصبحت أنت على الجزيرة واليا تقضى بما نزل الكتاب وتحكم

هذا فراغى من سواك يسده؟ إن كنتُ ذا حزم فإنك أحزم

تالله لا آسى لشىء فاتنى لكن طعم الظلم فى الفم علقم

خزيمة : الله يعلم أننى يا عكرمُ مما أصابك جازع متألمُ

لذ يا أخى بالصبر. مالك واقفا؟

عكرمة : أنا راحل منى السلام عليكمُ

سعد : مابال عكرمة تسلل هاربا؟

خزيمة : إنى عليه مشفق متألم

سعد : إن كان غاب فأنت زاه مشرقٌ

سعيد : فزنا بدينار وأفلت درهم

سعد : دست الإمارة ياخزيمة مشرقٌ

سعيد : وفم الجزيرة ضاحك متبسم

سعد : ما كان غيرك أنت يصلح واليا

سعيد : وأنا على ما قال سعد أقسم

خزيمة ـ لعمرو وقد كان بالباب :

ياعمرو قم تسلم الخزانه أعهد فيك الصدق والأمانه

عمرو: سمعاوطاعةلسيدىالأجل سألت خالقى له طول الأجل

سعد ـ لخزيمة بعد خروج عمرو :

خزيمة لم تُتَـمِّمْ لنا الكلاما ماذا فعلت إذ نزلت الشاما؟

خزيمة : كانت لعمرى رحلة لطيفة إذ خصـنى بعطفه الخليفة

لكنه أسرف فى العتاب لأننى أسرفت فى غيابى

قلت له: لاشىء عنك يمنع لكنه الفقر الشديد المدقع

ثم قصصت قصة افتقارى وكيف أننى لزمت دارى

وكيف لم أعثر على صديق يعيننى بماله فى الضيق

حتى أتى ذكر الفتى المقنع وذكر صُنع ذلك الفتى معى

سعد : من ذا ؟ أتعنى جابر العثرات

خزيمة : نعم نعم أقصده بالذات

فعندها اعترى سليمانَ العجب واهتز فوق عرشه من الطرب

وقال لى: أريد هذا الشخصا لكنه لغز علىّ استعصى

خزيمة ـ بعد سكتة قصيرة :

وبعدها أسدى إلى مكرمه كبرى فولانى مكان عكرمه

سعد : وهل بحثت يافتى الفتيان عن جابر العثرات فى البلدان؟

خزيمة : هيهات لم أجده فى مـكان الحق أن أمره أعيانى

سعيد : كأنه نجم أغر أو ملك هوى وعاد ثانيا إلى الفلك

عمرو ـ يدخل ثائرا : مولاى عجز فى الخزانة فادح

خزيمة : عجز . لعمرى ذاك أمر فاضح

قم ناد عكرمة سريعا ناده

سعد ـ بعد خروج عمرو : هو وحــده المسئول

سعيد : أمر واضح

خزيمة ـ وهو ثائر :

عجز بمال المسلمينا ؟ هذا لعمرى لن يكونا

إن لم يُسدَّدْ عاجلا أنزلت عكرمة السجونا

قد كنت مغرورا غدا ة ظننته رجلا أمينا

ويحى ! أأجهله ويعـ رفه أمير المؤمنينا ؟

عكرمة ـ وقد حضر :

نعم نعم ماذا يريد الوالى ؟ هل جد أمر يقتضى سؤالى ؟

خزيمة ـ لعمرو أمام عكرمة : كم ذلك العجز ؟

عمرو : كثير جدا العجز مبلغ يفوق العــدَّا

ألفٌ وألف ثم ألف متبعه من الدنانير بألف أربعه

خزيمة ـ لعكرمة :

أسمعت هذا هل فهمت سؤالى؟ أنى ذهبت بهذه الأموال؟

عكرمة ـ فى ارتباك

ماذا أقول ؟ أرى لسانى عاجزا فــكأنما هو موثق بعقال

العجز أمر لامحالة ثابت إنى لمعترف بغير جــدال

خزيمة : إن اعترافك لايقيلك من يدى أين النقود أريدها فى الحال ؟

عكرمة : أقسمت مالى ياخزيمة طاقة أبدا بهــذا إن بيتى خال

أقسمت لم آخذ لنفسى درهما مما اتهمت به ولا لعيالى

لاتحسبنى ياخزيمة فى غنى إنى لفى بؤس ورقة حال

خزيمة : المال مال المسلمين جميعهم هيهات أنزل منه عن مثقال

عكرمة : أظننت أنى ياخزيمة خائن ؟ هذا لعمرى لم يمر ببالى

هبنى اقترضت المال حين احتجته أفلا تمن علىّ بالأمهال ؟

قد كنت أنوى سده لكننى فوجئت بالإقصاء عن أعمالى

دعنى على طول الزمان أرده والله ذو كرم وذو أفضال

خزيمة ـ يقول هذا بينما عمرو يقوم بالتنفيذ :

كلا، لعمرى لست تفلت من يدى هيا ائته ياعمرو بالأغلال

اطرحه فوق الأرض شد وثاقه أدخله سجنا محكم الأقفال

هذا جزاء فتى يخون الله فى أمواله ثمن الخيانة غال!

ستار

الفصل الثالث

يرفع الستار عن بهو بدار الامارة التى يقيم بها خزيمة. يتصل بالبهو سجن يؤوى عكرمة . ليس هناك إلا الغلام عمرو ويظهر على الباب أسامة بن عكرمة قادما لزيارة أبيه .

أسامة فى خضوع . أيا عمرو

عمرو فى غلظة . ويحك ماذا تريد؟

أسامة : أتسمح لى أن أرى والدى ؟

عمرو فى تهكم

أجئت تزور أباك الهمام أخا الفضل والشرف الزائد؟

أسامة : كأنك تسخر ياعمــرو منه لى الله من قلبك الجاحــد

عمرو : أنا جاحد هل جحدت النقود؟ أعيذك من مقــلة الحاسد

أسامة : وماذا جناه أبى فأطلت وأسرفت فى لفظك البارد؟

عمرو : هناك الخزانة سلها تجبك ألم تدر يالك من مارد ؟

أسامة : وأين أبى؟

عمرو : هاهنا، اصبر قليلا أجئك بعكرمة الزاهد

وسوف ترى القيد فى رجله كخلخال غانيـة ناهــد

عمرو يذهب ليجىء بعكرمة من سجنه وفى أثناء سيره يقف عند مخبأ « برافان » أعد لاختبائه ويقول :

عمرو : هنا هنا لابد لى أن أختبى مستمعا حديث الابن والأب

لعلنى من هــذه الأقوال أعرف أين مخبأ الأموال؟

عمرو ــ بعد أن يأتى بعكرمة ساخرا :

هلما واشبعا الآنا معانقة وأحضانا

سأرحل عنكما لاتخ شيا فى الدار إنسانا

فبوحا بالغرام إذن وبثا الشوق ألحانا
ولكن لاتطيلا إن م موعد سيدى حانا

ينصرف عمرو إلى المخبأ فتبدأ مناجاة أسامة لأبيه :

أسامة : ماذا جنيت أبى فبت سجينا ؟

عكرمة : أو ماعرفت؟ أبوك صار خئونا

أسامة : ياللكرامة والإباء/لما جد حر/عزيز الجار/بات مهينا
أنا ما عهدتك خائنا لابل أبا للكل برا بالجميع حنونا
أهناك عجز فى الخراج ؟

عكرمة : نعم

أسامة : إذن يا والدى فالقوم معذورونا

عكرمة : هى زلة لكن يخفف وقعها أنا أناس غير معصومينا
ولقد أخذت المال أبغى رده لو أمهلونى يا أسامة حينا
ما كان ظنى أن أقال فجاءة بل كنت آمل أن أظل سنينا

أسامة : والمال أين مضى؟ عهدتك حارسا يقظا وحصنا للخراج حصينا

عكرمة : تلك النقود بها أعنت خزيمة إذ لم يجد بين الرجال معينا
أنسيت ليلة أن خرجت مقنعا وجعلت تبحث عن أبيك حزينا؟

أسامة فى دهشة شديدة :

ويحى ! إذن فالمال عند خزيمة وهو المدين به ولست مدينا
لم لم تقل هذا له ؟

عكرمة : كلا ولو أصبحت فى جوف الضريح دفينا

أسامة : عجبا ! أمن أخذ النقود منعم يشدو وأنت هنا تئن أنينا ؟

عكرمة : عذرا له ما كان إلا واليا أمسى بمال المسلمين ضنينا

أسامة فى انفعال :

دعنى أبين لابن بشر من أبى — وأريه أيكما يكون أمينا ؟

عكرمة : كلا ، أتطلب منه أجر صنيعنا — هل نحن بالإحسان متجرونا ؟

إن كان ذاك، غدا ابن بشر رابحا — وغدا أبوك الخاسر المغبونا

أسامة : كلا لعمرى ماخسرت وإنما — هى حرمة حفظت وعرض صينا

دعنى أذيع السر إن لوالدى — عرضا بهذا السر بات رهينا

لولا الكرامة ماهممت بكشفه — إنى لأعتبر الكرامة دينا

عكرمة : لا يابنى أراك قد أسرفت فى — طيش الشباب ألا تكون رزينا؟

أيقال عكرمة وهت عزماته — أيظن ويحك بى خزيمة لينا ؟

أيقال ماواسى ابن بشر حسبة — لكن تقاضى الأجر منه ثمينا ؟

أسامة : دع ياأبى تلك المخاوف وليقل — أهل الجزيرة عنك مايبغونا

أفلا ذكرت بنيك يالك من أب — ينسى بنات خلفه وبنينا ؟

أهون على بأن أموت ولا أرى — أمى تنوح وإخوتى يبكونا

عكرمة : ماذا تقول ؟ دع البنين وذكرهم — حركت آلاما وهجت شجونا

لادر در أولئك الأبناء إن — كانوا على آبائهم يجنونا

هيهات، إنى لو أردت القول لم — أفصح ولم أجد اللسان مبينا

قم يا أسامة وارع عهد أبيك لا — تخفره واحفظ سره المكنونا

سجنى أحب إلى مما تشتهى — ولو اننى فيه مكثت قرونا

ثم ينصرف إلى سجنه فيقول أسامة باكيا :

سمعا وإذعانا لأمرك يا أبى — سيظل سرك فى الحشا مخزونا

ثم ينصرف أسامة فيخرج عمرو قائلا فى دهشة تشبه الجنون:

تلك النقود بها أعنت خزيمة — إذ لم يجد بين الرجال معينا

أنسيت ليلة أن خرجت مقنعا — وجعلت تبحث عن أبيك حزينا

ويحى أهذا جابر العثرات أم من ذاك؟أوشك أن أجن جنونا

هنا يدخل خزيمة فيقول :

ماذا جرى حتى تجن جنونا ؟ ماذا تقول؟ أفق كفاك مجونا

عمرو — فى شبه جنون :

مولاى ياللذل ياللعار يالفضيحة والحديث السارى

أنكون يامولاى أسرى بره ويبيت مسجونا حليف إسار؟

عجبي عليه يبيت تحت عيوننا ونخاله سرا من الأسرار

علم لحلم فى الكرى قوموا اسمعوا وتحدثوا يامعشر السمار

هذا لعمرى جابر العثرات قد عثرت به الأيام أىَّ عثار

خزيمة - فى دهشة :

من جابر العثرات ويحك يافتى فى أى دار أم بأى قرار؟

فى الهند أم فى الصين ويحك نازل؟

عمرو : لا ، ليس بينكما سوى أشبار

ماجابر العثرات إلا عكرمٌ

خزيمة - فى دهشة شديدة من أين جئت بهذه الأخبار؟

عمرو : أفضى بذلك لابنه فسمعته إذ كنت مختبئا وراء ستار

خزيمة — بعد برهة تفكير :

ويحى ألم أفطن لقيمة عجزه؟ العجز كالإحسان فى المقدار

خزيمة - منفعلا :

قم هات عكرمة وحل وثاقه ياعمرو لاتبطىء بدار بدار

خزيمة - يناجى نفسه بعد خروج عمرو :

رباه كيف أقابل الرجل الذى قابلت نعمته بكل جحود

أضفى علىّ صنيعه فلبسته وتركته فى السجن رهن قيود

طوقت جيد عكرم بسلاسل	لكنه بالفضل طوق جيدى
ما كنت فى رد الجميل بماجد	شهم ولا بفتى كريم جدود
قد بات يثقل كاهلى معروفه	فكأنه من جندل وحديد
هلا تفتحت السماء فأختفى	أو شق بطن الأرض عن أخدود؟
قولوا لعكرمة ذبحت حزيمة	ذبح النياق بحد سيف الجود
وتركته يحيا بقية عمره	فى زى أحرار وذل عبيد

عكرمة — يدخل طليقا.

عجبا خزيمة فيم تطلق ساقى ؟	هل جد مايدعو إلى إطلاقى؟

خزيمة — وهو يقبل قدمه ويده :

دعنى أقبلُ هذه القدم التى	تسعى إلى العافين بالأرزاق
دعنى أقبل هذه الكف التى	منت علىّ فكوفئت بوثاق
داوى جراحى عكرم وجرحته	شتان بين خلاقه وخلاقى

عكرمة فى دهشة : ماذا جرى ؟

خزيمة :	أولست تعرف ماجرى؟	كم كنت أبحث عنك فى الآفاق
	ياجابر العثرات قد برح الخفا	فاظهر ظهور البدر بعد محاق
عكرمة :	ممن عرفت السر إنى مطبق	فكى عليه أيما إطباق ؟
خزيمة :	فيم التستر إنها شمس الضحى	لا غيم يحجبها عن الأحداق
	والفضل مثل الطيب ينفح ريحه	فى الجو مهما صين فى الأحقاق
عكرمة :	لا بأس فليغفر لنا الخلاق . ما	أدنى وأوسع رحمة الخلاق!

خزيمة — لعمرو

ياعمرو هات القيد قيدنى به	لا تعفنى ضيق علىّ خناقى
قيد به قدمىّ ثم يدىّ لا	يأخذك بى شىء من الإشفاق

عكرمة وعمر يقيده : ماذا تحاول ؟

خزيمة : أن ألاقى بعض ما قد كنت فى الإسار تلاقى

دعنى أكابد فى ظلام السجن ما كابدت من عنت ومن إرهاق

دعنى أجوع كما تركتك جائعا وأذوق طعم الهون أى مذاق

عكرمة وهو يأخذ القيود :

أقسمت لست بفاعل . ياعمرو لاتفعل . بل ارم بهذه الأطواق

خزيمة : أصفحت عنى ؟

عكرمة : كلَّ صفح

خزيمة : إننى عبد مننت عليه بالإعتاق

خزيمة لعمرو : ياعمرو قم فاذهب بعكـ رمة إلى الحمـام

ألبسه حلة سندس من صنعة الأعجام

عمرو : إنى له ياسيدى من جملة الخدام

خزيمة : قدم له ياعمرو أشـ هى مشرب وطعام

أفلا نجازى جابر الـ عثرات بالإكرام ؟

عمرو : إنى له يا سيدى من جملة الخدام

خزيمة : لاتنس أنا راحلا ن إلى ربوع الشام

فاحمله فوق مطهم أعدى من الآرام

عمرو : إنى له يا سيدى من جملة الخدام

عكرمة : ماذا تقول لم الرحيـ ل إلى ربوع الشام ؟

خزيمة : أمرُ الخليفة والخليـ فة نافذ الأحكام

عكرمة : من أين يدرى قصتى ؟

خزيمة : جاءت خلال كلامى

حدثته بالأمس عن هذا الخلاق السامى

فإذا به يهتز هِزْ   زَةَ منتش بمدام
وتركته إذ ذاك وهْـ   ـو إلى لقائك ظام

عكرمة : لله درك يا خزيْـ   ـمة من فتى نمام

عمرو — لعكرمة

يهنيك صرت لدى الخليـ   ـفة موضعَ الإكرام
ستفوز منه بالنوا   ل غدا وبالأنعام
فاذكر نصيبي حين تر   جع ثانيا بسلام

ستار

محمود غنيم
مدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

من أدباء الجيـــل !!

للأستاذ محمد سعيد العريان

كانت أشعة الصباح ذابلة صفراء ، ترتعش لكل نسمة تهب ، وكان الجو عاصفا ، والمطر يلطم زجاج النافذة فينفذ رشاشه من فروجها ، ويسيل قطرات على الجدار ، وفى زاوية من الغرفة كان الفتى النحيل جالسا إلى نضد صغير يكتب..

منذ ساعات والفتى فى مجلسه ذاك ، يستنزل الوحى ويتألف أشتات المعانى، لا يكاد يحس شيئا حوله ، والناس نيام !

يجب أن يفرغ من إعداد هذه الخطبة التى يكتبها قبل الصباح ، إن هنالك من ينتظر . . . . .

ودقت الساعة اثنتى عشر دقة ، فرفع الفتى رأسه عن أوراقه ووضع القلم وفى عينيه أثر الجهد والإعياء . . وارتفق بذراعه على النضد الذى يتخذه خوانا بالنهار ومكتبا بالليل ، فسمع له مثل صرير الباب تضربه الريح . . . ودار بعينيه فى الغرفة التى تضم كل مايملك من متاع ، ينقل بصره بين البذلة المعلقة بالمشجب ، والطربوش الملقى على الوسادة ، والفراش المشعث منذ غادره فى الصباح الباكر . ثم زفر زفرة . . . وخرجت من بين الكتب المركومة إلى جانب الحائط دُويبّة صغيرة تلتمس طريقها إلى الباب فى تثاقل وبطء . وارتمى إليها نظر الفتى ، فابتسم . . ثم قلب شفته فى رثاء « آه ، حتى أنت يامسكينة . . . تسهرين الليل مثلى فى البحث عن القوت » .

ثم عاد إلى مكتبه وأوراقه . .

❊❊❊

وفرغ الفتى من عمله ، فأشعل آخر دخينة فى علبته . . . ثم أخذ يقرأ لنفسه ما كتب . . . وأشرق وجهه راضيا كأنما مسحت على آلامه يدٌ رحيمة ، ثم هب واقفا وعلى شفتيه ابتسامة الرضى والسلام ، وبسط أوراقه أمام عينيه . . وعاد يقرأ .

« أيها السادة ! . . . »

وخُيل إليه فى موقفه ذاك أنه هوماهو بين الناس ، فى جمع حاشد تشرئب أعناقهم إليه ، فلعب به الزهو واستخفته الكبرياء ، واستمر يخطب . . .

« . . . أشكر لكم هذا التقدير الغالى . . . إن أمة تحتفى بأدبائها هذه الحفاوة العظيمة . . . »

وأحس شيئا يَخِزُه فى صدره فلم يتم . . . « التقدير الغالى . . . والحفاوة العظيمة . . . » أين هو من هذه المعانى ؟

إنه منذ سنوات وسنوات يجاهد جهاده للفن والأدب ، وينشىء كل يوم فى تاريخ الآداب فصلا جديدا ! وها هو ذا اليوم حيث بدأ منذ سنوات وسنوات ، لايذكره أحد ولا يعترف له إنسان ، ولم يُجِدَّ عليه جهادُ السنين شيئا . . . ولكنه مع ذلك مسئول أن يعمل ، وأن يدأب ، لاينى ولا يستريح ؛ لأنه يريد أن يعيش !

وغام وجهه بعد صفاء ، وذبلت الابتسامة على شفتيه ، وتخاذلت كبرياؤه ، وعاد إلى نفسه يفكر فيما عليه من فرائض الحياة .

لقد أوشك الصبح أن يسفر ، وإن عليه موعدا أن يغدو مبكرا على الأديب الكبير (فلان . . . .) ليدفع إليه الخطبة التى أعدها وبذل فيها سوادَ ليلهِ وعُصارةَ قلبهِ ، ويقبض ثمنها ، شأنه معه منذ سنوات .

وطوى الفتى أوراقه كأنما يلف ميتا فى أكفانه ؛ ثم أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه .

واستيقظ بعد ساعات ، فلبس بذلته ونفض الغبار عن طربوشه ، ثم سك باب غرفته ومضى يهبط السلالم درجة درجة ، وفى يمناه الخطبة التى أعدها ليلقيها الأديب الكبير ... فى حفلة تكريمه ! ياللسخرية !

وسار على حَيدِ الطريق ، ويسراه فى جيبه تعبث بما فيه من قروش ، وفى رأسه خواطر تصطرع وتموج ....

أرأيت إلى الأب يمشى وحيدا فى جنازة ولده العزيز ليشيعه إلى مثواه ؟ كذلك كان يمشى هذا الفتى وفى يمناه أوراقه مطوية فى غلافها !

وعاج إلى بائع الصحف فاشترى واحدة ، فأخذ يقلب صفحاتها حتى انتهى إلى الموضوع الذى يبحث عنه ، فمضى يقرؤه ..

... لم يكن موضوعا جديدا عليه ، لقد قرأه من قبلُ مرات ، حتى ليعرف دلالة كل حرف فيه . أتراه يقرأ الساعة من الصحيفة التى فى يده أم يقرأ من غَيبِ صدرِه ؟ .. وانقبضت نفسُه حين انتهى إلى الإمضاء ، ثم ابتسم ..!

... ماذا عليه أن يبيع المجدَ لـُطلاَّبه بالمال ؟ إنه يعطيهم مما يملك لينتفع منهم بما لا يملك ؛ وماذا يجدى عليه المجدُ والشهرة وذيوع الصيت وإنه لمحتاج إلى الرغيف ؟

ليت شعرى ، أى الرجلين أكثر جَدْوَى على صاحبه ؟ ذلك الذى يُعطِى القرشَ أم هذا الذى يأخذه ؟

وخُيل إلى الفتى أنه عرف الجواب فطابتْ نفسه وعاوده الشعور بالرضا والاطمئنان ! ونام الفتى فى تلك الليلة ملء بطنه ... لا يعنيه من أمر الحياة شىء وسهر الأديب الكبير ليلته يستظهر الخطبةَ الـمُـعَدَّةَ ليلقيها مساء غد فى حفلة تكريمه ...

وأشرق الصبح ، فنهض الفتى من فراشه ولبس بذلته وخرج لبعض شأنه ، وعاج على ندى فى الطريق يتناول فطوره ، فطاب له المجلس ...

وجلس إلى جانب الباب يتْتبع عينيه كلّ غادية ورائحة فى الطريق ، وتسرّحت خواطره فنونا ، من مشهد قريب إلى معنى بعيد ، وانفتل من دنياه يجرى فى عنان الأوهام ... فما صحا من أحلامه إلا على صوت النادل يمد إليه يده بورقة الحساب ، وعاد إلى الحقيقة ولكن بعد مشوار طويل فى وادى المنى ..

ودفع ماعليه ونهض ، ليعود إلى غرفته فيغلق بابها عليه،ويجلس إلى مكتبه يستنزل الوحى ويؤلف أشتات المعنى ، وانتهى مما كتب والشمسُ فى صفرة الأصيل . فغادر غرفته عجلان ليشهد حفلة التكريم .

***

... وكانت الردهة الفسيحة ليس فيها موضع لقدم ، وقد نُصَّت المقاعد صفوفا صفوفا فما بينها فرجة تتسع لعابر ، واختلطت أصوات المجتمعين فما يَبين صوتٌ من صوت ، وسكنت الأصوات فجأة حين بدت طلعة الأديب الكبير، وتطاولت إليه الأعناق تنظر ، ومضى الأديب الكبير فى طريقه ثابت الخطو، وهو يرفع يديه إلى رأسه ، حتى انتهى إلى مقعده فى صدر المكانِ والعيون ناظرة إليه ..

ووجد الفتى مكانا فى أدنى الردهة إلى الباب ، فجلس وإنه ليشعر مما به كأنه غريبٌ فى هذا المكان !

وتعاقب الخطباء خطيبا بعد خطيب،وشاعرا بعد شاعر ، يمدحون الأديب الكبير ويعدّدون أياديه ، وهو مطرق الرأس من خجل ، لايزيد على أن يبتسم !.

وخيل إلى الفتى فى مجلسه البعيد من خياله أشياء ، فكأنما هذا الاجتماع الحاشد وهذا الثناء الرطب من أجله ، هو وحده ، وكأنما هو هو ولا أحد هناك، فأطرق رأسه من خجل كذلك ، لايزيد على أن يبتسم !

وماذا يضيره أن يجهل الناس اسمه ومكانه وإنهم ليعرفون من يكونُ بآثاره وأدبه! ماذا يضيره أن يكون كتابهُ فى أيدى القراء بلاغلاف ولا عنوان . . .؟

ومضت ساعة ، ووقف الأديب الكبير ليؤدى واجبه لهؤلاء الذين اجتمعوا لتكريم أدبه والحفاوة به ، وأخذ يقرأ من غَيْب صدره .

« أيها السادة ! »

« . . . . . وأشكر لكم هذا التقدير العالى . . . . وإن أمة تحتفى هذه الحفاوة بالنابغين من أدبائها لحقيقة بالخلود . . . . »

وقال الرجل الذى يجلس إلى جانب الفتى فى الصف الأخير ونظر إليه : لله ماأحكم منطقه وأسدَّ بيانه !

قال الفتى : شكرا !

وسمعها الرجل وابتسم ، فما يملك أكثر من أن يبتسم ، وإنه ليعرف أن مجالس الأدب من أحفل المجالس بالمجانين !

واستمر الأديب الكبير يخطب :

« إنى لمدين للأمة بما أبذل لها من أعصابى ومن دمى ، شاكرٌ لله ماوهب لى من قدرة تهيئنى لأن أكون بهذا المحل الرفيع بين أبناء قومى . . . »

« إن الأدب الذى يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقا إلى المجد والخلود .... »

والتفت الفتى إلى جاره يقول : « لقد نسى فقرة طويلة ..... إنها كانت أجمل مافى الخطبة ! » ونظر إليه جاره فلم يتمالك أن ضحك ، فوضع راحته على فمه يكتم ضحكته أن تسمع ؛ وتنبه الفتى بعد سهوة ، فاحمر وجهه ثم اصفر ، ثم نهض فغادر المكان . . . . !

***

ونهض الفتى من فراشه مبكرا بعد ليلة ساهدة ، فقصد إلى دار الأديب الكبير يهنئه على ما نال من إعجاب الناس وما ظفر به من التقدير والمكانة ، ويستعينه على أمر . . . وقرأ صحف الصباح في الطريق ، فعرف مافاته مما كان في الليل . . .

ودق الجرس فانفتح الباب ، وقدّم الفتى بطاقته إلى الخادم ، فخلفه واقفا بالباب ينتظر ودخل يستأذن سيده ، ثم عاد إليه بعد لحظة يعتذر ؛ لأن سيده نائم ! واحمر وجهه من الغيظ ، ولبث واقفا بالباب برهة ، ثم مشى وفي نفسه ثورة تضطرم ، ومضى على غير وجه !

وتذكر الفصلَ البديع الذى انتهى من كتابته أمس قبل أن يغادر غرفته إلى مكان الاحتفال ، فأخرجه من جيبه ومشى يقرؤه . . .

لا ، لا ، لن يكون بعد اليوم ذيلا لأحد يبيعه نفسه برغيف من الخبز ، إنه ليعرف اليوم قدر نفسه أكثر مما عرف في يوم من الأيام ، لقد قالها الناس أمس كلمة « صريحة » وَعَتْهَا أذناه ، إنه هو هو وإن جهل الناسُ اسمَه ومكانه !

وسعى إلى إدارة الصحيفة التى نُشر فيها أولُ ما نُشر من منشآته منسوبا إلى الأديب الكبير ، وأىّ الصحف أولى بتقدير أدبه والاعتراف بفضله ، من الصحيفة التى عُرف منها « الأديب الكبير » أولَ ما عُرف ، ثم كانت أولَ من دعا إلى تكريمه والحفاوة به . إنه لهو هو وإن جهلت الصحيفةُ اسمهُ ومكانه .

واستأذن على المحرر ودخل فدفع إليه الورقات التى فى يده . . ونظر المحرر نظرة إلى وجهه وهندامه ، ثم أثبت وضع النظارة على عينيه وأخذ يقرأ هذه الورقات ولكن من آخرها ، ثم دفعها إلى الفتى ؛ وفي صوت متأنّق سمعه الفتى يقول : (يابنىّ ، إنها محاولة ، وإنى لأرجو أن يكون قريبا ذلك اليوم الذي ننشر فيه ماتكتب ، بعد أن تأخذ عدّتك وتنضج . . !)

وفتح الفتى فمه وهم أن يتكلم ، ثم سكت ، واتخذ طريقه إلى الباب فى صمت . . . ومن النافذة التى طالما سهر بجانبها الليالى إلى مكتبه يستنزل الوحى ويؤلف أشتات المعانى ، وقف يطل على الناس ساخرا ، ثم أخرج الورقات من جيبه فمزقها وأسلمها إلى الريح تنثرها على الرءوس كسرب مذعور من الطير الأبيض!

***

. . . وحين نشرت الصحفُ أن الحكومة قد رصدت من مال الدولة بضعة آلاف لمعاونة الأديب الكبير فلان . . . على تنفيذ مشروعه الأدبى العظيم . . . كان الفتى جالسا يقرأ الجريدة فى ظل شجرة على رأس الحقل، ويستريح برهة مما جدَّ فى الحرث والزراعة .

وخار الثور المربوط إلى المحراث كأنما يريد أن ينبه الفتى إلى أنه قد آن أوان العمل !

. . . ولكن الصحف لم تلبث أن عادت فنشرت فى الغد أن الأديب الكبير قد كتب إلى الحكومة يشكر ويعتذر ، لأنه قد اعتزل الأدب فماله هفوةٌ إليه بعد !

وأسف الناس إذ قرءوا ماقرءوا ، ولكن شخصا واحدا كان يعرف، وكان يبتسم ... !

محمد سعيد العريان

فهرست

العدد الثانى من السنة السابعة

عبد البديع ١٠ ٧/٥

زرقة ٧/٢

بشار ٢٥